الأُصولُ الرومانسيَّةُ في الشِعرِ الجَاهليّ
﴿ شعر التأمُّل ﴾

أ.م.د حسن دخيل الطائي
كلية التربية- صفي الدين الحِلّي

المُقدِّمة

عُرِفَ عن الشِعْرِ الجاهِليّ، بأنَّهُ شِعْرٌ واقِعِيٌّ، عُنِيَ بِتَصويرِ الواقعِ في العَصْرِ الجاهلي، وما يَضطَرِبُ بـه هذا الواقعُ، من أحداثٍ وصِراعاتٍ؛ فقد كُرِّسَ معظَمُ هذا الشِعْرِ، لِلذَودِ عَنِ القبيلةِ، وإلى نَشْرِ مَفاخِرِها، والتغنّي بانتصاراتِها، علاوة على تناولِهِ بعض جوانب الحياة الاجتماعية، مثل تصويره لِبَعْضِ أنماط مَعيشة الناس في تلك الحقبة، التي اتَّسمت بضَنَكِ العيش، وسوءِ الأحوال المعيشيَّة بسبب قلّةِ الموارِدِ في تلك البيئة الصحراويَّة، فكان الجوعُ يضربُ أطنابَهُ في طول الصحراء وعَرضِها، وضاق الناسُ به ذرعًا، ونجمَ عن ذلك ظواهر اجتماعيَّةٌ مُدانةٌ، منها وَأْدُ البنات، والسلبُ، والنهبُ بين القبائل لكلِّ ما تطالُهُ أيديهِم في أثناء الغزوات التي دارت بينهم في ذلك العصر، فضلاً عمَّا قام به الصعاليكُ، من أعمالِ السَطْوِ، والنَهْبِ، واعتراضِ سبيلِ القوافلِ، وسرقةِ ما يمكنُ سرقتُهُ، ونجدُ ذلك واضحًا في شِعْرِ الصعاليك؛ وفي ضوءِ ما تقدَّمَ كان الشعرُ الجاهليُّ، صورةً صادقةً لِمُجتَمَعِهِ، وكادَ يكونَ وثيقةً تاريخيَّةً، تحكي حقيقةَ ذلك المجتمع، وكانت شخصيَّةُ الشاعر تذوبُ في إطار الجماعة، وهو يتناول هذه الموضوعات.غيرَ أنَّ تلك الأوضاعَ المُزرِيةَ من حُروبٍ، وقتلٍ، واضطرابٍ كان فيها الإنسانُ لا يأمنُ على نفسِهِ، ولا على مالِهِ، في مجتمعٍ يُعاني من الفقرِ المُدقعِ الذي يصلُ في كثيرٍ من السنين إلى درجة المجاعة، علاوة على ما تبعثُهُ هذه الصحراءُ القاحلةُ المُمحِلَةُ المُمْتدَّةُ على طول البصرِ، من وحشةٍ، وخوفٍ في نفوسِ أبنائها الذين لا يعرفونَ ما تُخبِّئُهُ لهم، فضلاً على ما يلفُّها من غُموضٍ؛ ذلك كلُّه جعل طائفةً من شعراء العصر الجاهلي، تصطبغُ نفوسُهُم بالحزنِ، وتستولي عليها الكآبة، وكان ذلك سببًا في ظهور هذا الضرب من الشعر، وهذا ما جعل الشاعرُ الجاهليُّ يُخصِّصُ جزءًا مِنْ شِعرِهِ؛ لِيُعبِّرَ عن همومِهِ الذاتيَّة، وعمَّا تختلجُ به نفسُهُ من مشاعرَ وأحاسيسَ نحو الحياة والموت، والطبيعة، فجاء هذا الشعرُ ذاتيًّا بكُلِّ ما تحملُهُ هذه الكلمة؛ فقد سجَّلَ فيه الشاعرُ الجاهليُّ ما يخطُرُ على بالِهِ، من مشاعرَ وأحاسيس نحو النفسِ الإنسانيَّةِ، والوجود. وهو يختلفُ عن الشعر الواقعيّ الذي عُنِيَ بالحديث عن السيوف، والخيول، والكرّ والفرّ، وما ينجُمُ عن هذه الحروب من مآسٍ، وويلات، وما يُحرَزُ من انتصارات، أو ما يقومُ به الصعلوك، من مغامراتٍ، وحِيَلٍ من أجلِ أن ينتزعَ لقمةَ عيشِهِ.
وتناولَ البحثُ أبرزَ الموضوعات التي دار عليها هذا اللون من الشعر، وهي التأمُّلُ في الحياة والموت، والخير والشر، والشباب والمشيب، والطبيعة؛ فقد حاول هؤلاء الشعراء التعمُّقَ في أسرارِ هذه الموضوعات، ومعرفة أسرارها، وكنهها، غير أنَّهم رجعوا ناكصين، فلم يقفوا إلا عند ظواهرها، فلم يشفوا غُلَّةَ نفوسهم الظمأى لمعرفة المجهول، فظلَّ الموتُ شبحًا يُلاحقُهم، اضطرَّهم في النهاية إلى الاستسلام لإرادتِهِ، والتسليمِ بما تكتبُهُ لهم الأقدار، وكذلك في الموضوعات الأخرى وقف الشاعرُ الجاهليُّ عند حدودِ ما اكتسبه من الحياة، في أثناء تجربته التي عاش فيها، فعلَّلَ مثل هذه الظواهر بما يمتلكُهُ من تجربةٍ، وما توافرَ له من ثقافةٍ ومُعتقداتٍ، لذلك أطلقنا على هذا الضرب من الشعر: الأصول الأولى للاتجاه الرومانسي، ولم نقُل الاتجاه الرومانسي؛ لأنَّ الشاعرَ الجاهليَّ، لم يتعمَّقْ في الأشياء، ولم يُعبِّرْ عن مشاعرَ، وأحاسيسَ، وعواطفَ تتَّسمُ بالنُضْج، كما كان يفعلُ الشاعرُ الرومانسي في العصر الحديث، يُزاد على ذلك أنَّ هذا الشعرَ يشبهُ الشعرَ الرومانسيَّ في كونِ صاحبِهِ يُعنى بالتغنّي بآلامِهِ، وأحزانِهِ، ويُعبّرُ عمَّا يُعانيهِ من اضطرابٍ، وقلقٍ، ويأسٍ في هذه الحياة، فضلاً عن أنَّ بعض الشعراء، سجَّلوا سبقًا في الميدان الرومانسي، فمن الشعراء من وقف على القبور، وسجَّلَ خواطرَهُ مثل عديّ بن زيد العبادي، وهو بعملِهِ هذا سبَقَ شعراء مدرسة القبور البريطانيَّة الحديثة الذين كانوا يقفونَ ليلاً في المقبرةِ، ويُسجّلونَ خواطرَهم، كذلك نظمَ بعضُ الشعراء في العصر الجاهليّ خواطرَهم، ومشاعرَهم بقصيدةٍ ذات أداءٍ قَصَصِيّ صَوَّروا فيها مشاعرَهم نحو الحياة والموت، وما يُلاقيه الإنسانُ في الحياةِ الأخرى بقصائد ذات نزعةٍ خياليَّةٍ زاخرةٍ بمشاعرِ الخوف، والرهبة، والقلق، مثل أميَّة بن أبي الصلت. وبهذا يكونُ هؤلاء الشعراء قد سبقوا شعراء الرومانسية الحديثة الذين نظموا كثيرًا من مشاعرهم، في قصائدَ تشبهُ شعر الأقصوصة، ويُعدُّ ذلك واضحًا في شعر جماعة الديوان، وأبولو.وظهر هذا الاتجاهُ الرومانسيُّ، جليًّا، في الخيال، فقد جاء أصحابُهُ، بصُوَرٍ شعريَّةٍ، تُثيرُ التأمُّلَ، وتبعثُ مشاعرَ وعواطفَ شتَّى، في نفوسِ مُتلقّيها، ولا تحفلُ هذه الصورُ الفنيَّةُ بالتشبيهات الحِسِّيَّة، أو المادّية، بل تُعنى بالتشبيه الذي يستطيعُ الشاعرُ، أن ينقُلَ إلى المُتلقّي، خلاصةَ ما استودعَ في ذهنِهِ من مشاعرَ، وعواطفَ، لا أن يتسابقَ في ميدان الألوانِ، والأحجام، والأشكال، فإنَّ مثلَ هذه الصورِ التي تحفلُ بالمحسوسات، يتساوى فيها الشاعرُ، مع خيال الإنسان العادي، وإنَّ مثلَ هذه الآراء في الخيال، دعا إليها الرومانسيُّونَ المُحدثونَ، ووجدناها مُجسَّدةً في شعرِ هؤلاء الشعراء في العصر الجاهليّ، فصُوَرُهُم الشعريَّةُ زاخرةٌ بالمشاعرِ والعواطف.وخلاصةُ ما أريدُ قولَهُ، أنَّ هذا البحثَ يُسلِّطُ الضوءَ على هذا الاتجاهِ الشعريّ الوليد، الذي لم يبلغْ مرحلةَ النضج، غيرَ أنَّهُ يكتسبُ أهميَّةً، في كونِهِ بدايةً رائدةً لمدرسةٍ شعريَّةٍ أصبحَ لها شأنٌ في العصر الحديث، وكان له الفضلُ في إغناء تجربة الشعراء العرب الرومانسيين، علاوة على أنَّ هذا الاتجاه عمل على التمهيد لنشوء شعر الغزل العذري، وشعر الزهد، والشعر الصوفيّ، وغيره من أنواع الشعر ذات الاتجاهِ الذاتي، الذي يُعنى بتصوير المشاعر والعواطف.

الشعرُ التأمُّلي

نظمَ الشاعرُ الجاهليُّ شعرًا تأمُّلِيًّا، يُشبِهُ في كثيرٍ من الأحيان الشعرَ الذي نظمهُ الرومانسيُّونَ في موضوعاتِ التأمُّلِ في الطبيعةِ، ومظاهرِ الكونِ، والحياةِ والموتِ، والنفسِ الإنسانيَّةِ، وحاول أن يتعمَّقَ في جوهرِ الأشياء، لعلَّهُ يُدرِكُ كُنهَها، ويعرفُ أسرارَها، ليُشبِعَ نهمَهُ من معرفة خفايا الكون، وليحلَّ رموز الغموض التي تُحيطُ بعالمِهِ الذي يعيشُ فيه؛ لأنَّ مثلَ تلك المشاعرِ التي يحُسُّ بها الشاعر الجاهلي كانت سببًا في تشاؤمِهِ وحُزنِهِ وقلَقِهِ في هذه الحياة، وكذلك فإنَّ مبعثَ القلقِ عند الشاعرِ الجاهليّ، وُجودُهُ في بيئةٍ صحراويَّةٍ مُترامية الأطرافِ يلُفُّها الغموضُ، إذ يمتدُّ فيها بصرُ الإنسان مسافاتٍ طويلةً من دون أن يعرفَ ما وراءَ تلك البحار الرمليَّة، بل المحيطات، من أمواجِ الرمال التي تُكوِّنُ الصحراء وما تنطوي عليه من أشياء؛ فإنَّ مثلَ هذا المنظر يبعَثُ الخوفَ في نفسِ الشاعرِ الجاهليّ؛ لما تُخبِّئُهُ هذه المتاهاتُ السحيقةُ من أسرارٍ وخفاياً، ممَّا جعلَ هذه الصحراءَ لا تخلو من وحشةٍ ((فإنَّ العربيَّ لم يبرأ من الشعورِ بوحشتِها ورهبتِها، ممَّا جعلَهُ يتصوَّرُ فيها ما لا أصلَ له، ويتخيَّلُ فيها ما لا حقيقةَ له، فاعتقدَ أنَّها مسكنُ الجنِّ، ويرى شخوصَ الغيلان))[1]، ويمكننا أن نلمسَ ما قُلناهُ في بيت الشاعر الأعشى، وهو يصفُ الصحراء:

وبلـدةٍ مثـلِ ظهْـرِ التُـرْسِ موحِشَـةٍ ... للجِـنِّ بالليـلِ فـي حافاتِهـا زَجَـلُ

لا يتمنّـى لهـا بـالقيظ يركبُهـا ... إلا الـذين لهـم فيمـا أتـوا مهـلُ[2]

ويبدو واضحًا أنَّهُ ((شبَّهَ الصحراءَ بظهرِ الدِرْعِ في انبساطها، وإقفارها؛ لأنَّها لا شيءَ فوقَ ظهرِها...جردت أرضُها وعريت صفحتها، تسمعُ للجنِّ بها أصواتًا وجلجلةً، وهو أخوفُ ما يخشاهُ قاطع الصحراء أو بتخيُّلِهِ، إذا تفرَّدَ فيها، وإنَّ هذه الصحراء المنبسطة، واللاهبة، لا يسمو إلى ركوبها، إلا الذين لهم فيما أتوا عُدَّةً، وقُوَّةً، لشدَّتها، وامتلكوا الهداية والمعرفة بدروبها، وشعابها))[3]، وممَّا زاد من خشية الشاعر الجاهلي، أنَّ هذه الصحراء قاسيةٌ على قاطنيها بكُلِّ شيءٍ، في مناخها الذي تضطربُ فيه درجات الحرارة بين الليل والنهار، فتلسعهم ببردها القارص ليلاً، ويلفح وجوهَهُم لهيبُ حرِّها الوهَّاج، يُضاف على أنَّها قاحلةٌ مُمحلةٌ، وقليلةُ الموارِدِ. وفي كثيرٍ من السنين، تحُلُّ بأهلِها المجاعةُ، وبخاصَّةً عندما لا تجودُ السماءُ عليهم بالمطر الوافر، الذي يؤمِّنُ لهم العشبَ الذي ترعاهُ أنعامُهُم، فيصيبُهُم الجدبُ والقحطُ، وتنزلُ بهم وبإبلِهم المهالكُ، والمآسي، وتنسفُ آمالَهُم البسيطةَ على حين غِرَّة، وتجعلُ أهلَ الصحراءِ يُلاقونَ مصيرَهُمُ المحتومَ وجهًا لوجهٍ في هذه الصحراء التي ليسَ فيها شيءٌ يُعينُهُم على تجاوزِ محنتهم.

ونجمَ عن قسوةِ هذه الحياة أن تفشَّتْ في مجتمعهم ظواهرُ مُدانةٌ مثلُ اللصوصيَّةِ، والصعلكة، وقُطَّاع الطُرُق، والسلبُ والنهبُ، والحروبُ، والغزواتُ التي تنشأُ بين القبائلِ حينَ تتخاصمُ على مناطقَ النفوذ، أو منابع المياه، أو بسبب العادات القبليَّةُ كالثأرِ أو الرهان، أو عقر ناقة. ويُمكنُنا أن نُدركَ ما كانت تفعلُهُ الحربُ من مآسٍ وويلاتٍ، في قصيدة زُهير بن أبي سُلمى إذ يقول في حرب داحس والغبراء التي اندلعت لسببٍ تافهٍ، وهو رهانٌ حول سباق الخيل، وذهب ضحيَّتُها خلقٌ كثيرٌ، يقول:

ومـا الحـربُ إلا مـا عَلِمـتُم وذُقـتُمُ ... ومـا هـو عنهـا بالحـديثِ المُـرجَّمِ

متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمـةً ... وتَضْـرَ إذا ضـرَّيتُمُوها فتُضْـرَمِ

فتُعـرِكُكُم عـركَ الرحـى بثِفالِهـا ... وتلقـحْ كِشـافًا ثـمَّ تُنـتَجْ فَتُتْئِمِ[4]

ويبدو واضحًا من هذه الأبيات حجمُ المعاناة التي كان يُقاسيها المجتمعُ الجاهليُّ، من جرَّاء هذه الحروبِ العبثيَّةِ، التي أرَّقتْهُم، وقضَّتْ مضاجِعَهُم، وخيَّبت آمالَهُم، وأشاعت بينهم حالةً من التشاؤم والحزن.

كلُّ ما تقدَّمَ جعلَ الشاعرَ الجاهليَّ يزدادُ خشيةً من هذه البيئة الصحراويَّةِ المُوحِشَةِ، والمحفوفةِ بالمخاطرِ، فخفق قلبُهُ خوفًا، فراحَ يُجيلُ النظرَ في حياتِهِ ويتأمَّلها بتأمُّلاتٍ بسيطة، تحكي طبيعةَ بيئتِهِ الصحراويَّة، التي تتَّسمُ بالانبساط والوضوح وامتداد البصر في أرجائها، وانكشافِ معالمها، لذلك نجدُ أنَّ تأمُّلاتِهِ تقفُ عند ظواهر الأشياء، ولا تتعمَّقُ في جوهرِها كثيرًا، ولا تستبطنُ مكامنها، ومن هذه التأمُّلات التي عبَّرَ من خلالها الشاعرُ الجاهليُّ عن قَلَقِهِ واضطرابِهِ، وما يلُفُّ نفسَهُ من حُزنٍ، وكآبةٍ، وانكسارٍ نفسيّ، حين يرى حياتَهُ لا تستقرُّ على حال، ولا يستطيع أن يأمنَ جانبَها، ممَّا دفعه ذلك أن يصُبَّ جامَ غضبِهِ على الدهر، ورآهُ خؤونًا غادرًا، وسبب آلامِهِ، وإنَّ مثلَ هذه الموضوعات التي تتناولُ الحياةَ والموت، من الموضوعات الرئيسة التي دار عليها شعرُ الشعراء الرومانسيّين. وقد جسَّدَ الشاعرُ الجاهليُّ صراعَهُ مع الزمن من خلال الموضوعات الآتية:

الحياة والموت

نجدُ أنَّ موضوعَ الحياة والموت، أرَّقَ الشاعرَ الجاهليَّ، ممَّا جعله يبذلُ جهدًا كبيرًا، من أجلِ أن يعرفَ شيئًا من أسرارِهِ، غير أنَّ مسعاهُ قد خابَ، ولم يظفرْ إلا بما لقَّنته به الحياة، وما تجرَّعهُ منها، من مصائبَ وويلات، لذلك نجدُ ((أنَّ نظرَ الجاهليّين إلى الموت ظلَّ مرتبطًا بمعادلةٍ غير متكافئة الطرفين، فصانعُ الموت هو

---

(1) الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة: ١٥١ .

(2) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر: ٥٩ .

(3) نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود. بهجت عبد الغفور الحديثي: ١٣٣، و١٤٤ .

(4) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨م: ٢٦– ٢٧ .

الزمن، أو الدهر، الذي يُرادفه كثيرًا...ويستقرُ في الوعي أنَّ الزمنَ قاتلٌ خفيٌّ لا يفلتُ أحدٌ من براثنِهِ))(١)، ويبدو ذلك واضحًا في شعر الشاعر النابغة الجعدي وهو يقول:

ولا تـــأمنوا الـــدهرَ الخـــؤونَ فإنّـــهُ   علـــى كُـــلِّ حـــالٍ بـــالورى يتقلّـــبُ(٢)

ومثلُهُ قولُ الشاعر زهير بن أبي سُلمى الذي يعنّفُ الدهر، ويوبِّخُهُ لما يفعلُهُ به، وبقومِهِ، ثمّ يقفُ مُستسلمًا أمام إرادتِهِ التي لا تُقهَرُ، فيقول:

فاســـتأثرَ الـــدهرُ الغـــداةَ بهـــم   والـــدَّهرُ يرمينـــي ولا أرمـــي

لـــو كـــان لـــي قرنًـــا أناضِـــلُهُ   مـــا طـــاشَ عنـــد حفيظـــةٍ سَـــهْمي

يـــا دهـــرُ قـــد أكثـــرتَ فجعتنـــا   بسَـــراتِنا وقرعـــتَ فـــي العَظْـــمِ

وســـلبتنا مـــا لســـت مُعقِبَـــهُ   يـــا دهـــرُ مـــا أنصـــفتَ فـــي الحُكـــمِ(٣)

وكانت مثلُ هذه المشاعر، مصدرَ نكدٍ لحياة الشاعر الجاهلي، الذي أخذَ يُمعنُ النظرَ في حياتِهِ، ويتأمّلها جيّدًا، لعلَّهُ يجدُ فيها ما يُهدِّئُ روعَهُ، ويُزيحُ عنهُ كابوس الخوف، غير أنَّ خلاصةَ ما وصلَ إليه من تأمُّلاتٍ لحقيقة الحياة، في كونها لا تعدو الزمنَ الذي قسَّمَهُ الإنسانُ إلى ليالٍ وأيَّامٍ وأشهُرٍ وسنين، وإنَّ هذه الأيَّامَ، والأشهُرَ، والسنينَ، تُشبِهُ المطايا التي يمتطيها الإنسان، فتمضي به نحو مصيرِهِ المحتوم، وهو تصويرٌ بارعٌ يُذكِّرُنا بشعراء الرومانسيَّة، وهم يُصوِّرونَ المواكبَ البشريَّةَ وهي تشُقُّ طريقَها في الحياة، فيتساقط كثيرُ من أبناء البشر في أثناء هذه الرحلة المُضنية، وهم يقطعونَ الأيَّامَ والسنينَ في حياتِهِم(٤)، وكذلك بما رآه بعضُ الرومانسيين الذين يبكونَ على تساقطِ سنواتِ عُمرِهِم، كما تسقُطُ أوراقُ الشجرِ في فصل الخريف(٥) التي هي إيذانٌ برحيل الحياة، والسير نحو الذبول والموت، وفي ذلك يقول حاتم الطائي:

ومـــا هـــي إلا ليلـــةٌ، ثـــمَّ يومُهـــا   وحـــولٌ إلـــى حـــولٍ، وشـــهرٌ إلـــى شـــهرِ

مطايًـــا يُقـــرِّبنَ الصـــحيحَ إلـــى البِلـــى   ويُـــدنينَ أشـــلاءَ الهُمـــامِ مِـــنَ القبْـــرِ(٦)

ويقولُ حاتمُ الطائي في المعنى نفسه:

هـــل الـــدَّهرُ إلا اليـــومُ أو أمـــسِ أو غـــدُ   كـــذاك الزَّمـــانُ بيننـــا يتـــردَّدُ

يَـــرُدُّ علينـــا ليلـــةً بعـــد يومِهـــا   فـــلا نحـــنُ مـــا نبقـــى ولا الـــدهرُ ينفَـــدُ

لنـــا أجَـــلٌ إمَّـــا تنـــاهى أمامُـــهُ   فَـــنَحْنُ علـــى آثـــارِهِ نَتَـــورَّدُ(٧)

فقد أحزنَ تعاقبُ الأيَّام حاتمَ الطائي، ونغَّصَ عيشَهُ، عندما أدركَ ما ينجُمُ عن مجيئها، وتعاقُبها، مع الزمن، فهي تقودُهُ نحو الهرم، والشيخوخة، والفناء، وكأنَّ الشاعرَ اقتربَ ممَّا قالهُ الفيلسوف هرقليطس: ((أنت لا تنزل إلى النهر مرَّتين))(٨)؛ لأنَّ الحياة مُتغيِّرةٌ، وإنَّ التغييرَ يطالُ الأشياءَ جميعها، في كُلِّ لحظةٍ من لحظات حياتها، وأنَّ لا شيءَ يظلُّ على حالِهِ، بل أنَّ الكُلَّ يمضي نحو الزوال والفناء. وهذا ما دعا الشاعرَ الجاهليَّ إلى الحزنِ وهو يستقبلُ يومَهُ الجديد؛ لأنَّهُ رأى فيه نذير شؤمٍ يحملُ معه شبح الموت، فيقول عمرو بن الأهتم:

يُطـــاوحني يـــومٌ جديـــدٌ وليلـــةٌ   همـــا أبليـــا جســـمي وكـــلُّ فتًـــى بـــالي

إذا مـــا ســـلختَ الشـــهرَ أهللْـــتَ مثلَـــهُ   كفـــى قـــاتلاً سَـــلخي الشـــهورَ وإهلالـــي(٩)

ومثلُ هذا المعنى يُردِّدُهُ عبيد بن الأبرص في قوله:

يـــا عمـــرُو مـــا راحَ مِـــنْ قـــومٍ ولا ابتكـــروا   إلا وللمـــوتِ فـــي آثـــارِهِم حـــادي

يـــا عمـــرُو مـــا طلعـــت شـــمسٌ ولا غربـــتْ   إلا تُقـــرِّبُ آجـــالٌ لميعـــادِ(١٠)

ويمضي الشاعر الجاهلي في تأمُّلِهِ للحياة والموت، ويُعنى بهذه الثنائية التي كانت موضوعًا بارزًا استأثَرَ باهتمام شعراء الرومانسيَّة في العصر الحديث، فكان لرؤية الشاعر الجاهلي ((في نسيج الوجود خيطان: خيطُ

---

(١) دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٠م: ٢٢٨ .

(٢) ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م: ٢٩ .

(٣) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى: ٢٨٢ .

(٤) ينظر: الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداني، د.فائق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م: ٢١٨ .

(٥) ينظر عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا، د. عبد الفتاح عبد المحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م: ٢٥٦ .

(٦) ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. حنّا نصر الجتي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١١٠ .

(٧) ديوان حاتم الطائي: ٦٤ . إمامه: طريقه الواضح، نتورّد: نتزوّد .

(٨) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت: ١٧ .

(٩) الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٩هـ)، تحقيق: د. أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م: ٤١٦ .

(١٠) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصّار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م: ٤٨.

الحياة، وخيطُ الموت، والموت والحياة سُداةُ الوجودِ ولُحْمَتِهِ))[1]، ورأى الشاعر الجاهليُّ ثنائيَّةَ الحياةِ والموت في الطلل الذي كان عامرًا بأهلِهِ الذين نصبوا الأثافيَّ، وطهوا الطعامَ، ثمَّ رحلوا عنه، وأصبحت ديارُهُم مُقفرةً، موحشةً تسكنُها الحيوانات، بعدَ أن وجدت فيها مكانًا آمنًا خاليًا من البشر، ثمَّ يحاولُ الشاعر عبيد بن الأبرص أن يتعمَّقَ في هذا الموضوع غير أنَّهُ لم يأتِ بشيءٍ جديد سوى بعض الحكم التي استلهمها من تجاربِهِ الحياتيَّة، وهو يقول:

إنْ بُـــدِّلتْ أهلُهـــا وحوشًـــا ... وغيَّـــرتْ حالَهـــا الخُطـــوبُ
أرضٌ توارثهـــا شـــعوبٌ ... وكـــلٌّ مـــن حلّهـــا مخـــروبُ
إمَّـــا قتـــيلاً وإمّـــا هالكًـــا ... والشـــيبُ شـــينٌ لِمَـــنْ يشـــيبُ[2]

وظلَّ شبح الموت يُلاحقُ الشاعرَ في العصر الجاهلي، في يقظته، ونومه، ويلوحُ له كما تلوح له الشمس عند شروقها وغروبها، فيذهبُ عنه، ويجيءُ إليه، فيُنغِّصُ عليه حياتَهُ، ويُحيلُها إلى حياةٍ كئيبةٍ حزينةٍ، وبخاصَّة حين تأمَّلَ الحياة بعمق، ثمَّ خرجَ بهذه الرؤيا، وهي أنَّ حياة الإنسان مهما طالت، فلابُدَّ لها أن تفنى، ويعقبُها الموت، وعلى الإنسان أن يُدرِكَ هذه الحقيقةَ ويضعُها نُصبَ عينيه، ولا يغترُّ بطول الحياة؛ لأنَّ للدهرِ غولاً تتربَّصُ به سوءًا، وتبغي الانقضاض عليه، واغتياله، وإهلاكَهُ في أيَّةِ لحظة تشاء، وفي ذلك يقول الشاعر أُميَّةُ بن أبي الصلت:

كـــلُّ عـــيشٍ وإن تطـــاولَ دهـــرًا ... صـــائرٌ مـــرَّةً إلـــى أن يـــزولا
فاجعلِ المـوتَ نُصْـبَ عينيكَ واحـذر ... غولـــةَ الـــدهر إنَّ للـــدهرِ غـــولا[3]

ويأتي الشاعر امرؤ القيس بالمعنى نفسه، بعدما جعل الدهرَ ذاته، غولاً غدورًا لا يُؤمَنُ جانبُهُ، يمكنُ له أنْ ينقضَّ على حياة الإنسان، ويُطفئ شعلة الحياة، ويجهض آماله ممَّا كان سببًا في حُزنِ امرئ القيس في هذه الحياة، فيقول:

ألـــمْ أخبِـــرْكَ أنَّ الـــدهرَ غُـــولٌ ... ختـــورُ العهـــدِ يلـــتهمُ الرجـــالا[4]

إنَّ مثلَ هذه المشاعر التي يحُسُّ من خلالها الشاعرُ الجاهليُّ أنَّ الخلودَ في هذه الحياة ضربٌ من المستحيل، وإنَّ الموت واقعٌ في الحياة، ولا رادَّ له قلبت حياة الشاعر عديّ بن زيد، رأسًا على عَقِب، من حياةٍ ينعمُ بها ببالٍ صافٍ، وهو ينغمسُ بطيبِ الحياة، ويقطفُ ملذَّاتها، وينعمُ بها، إلى ما يشعرُهُ أنَّ أيَّامَهُ تمضي بسرعةٍ إلى نهايةٍ محزنة، ممَّا جعلَهُ يُمسي مُكتئبًا حزينًا كثير الهموم يؤرِّقُهُ ما ينتظرُهُ من مصيرٍ مؤلمٍ، وهو يرى الحياةَ كالشِهاب تضيءُ، ثمَّ تنطفئُ، وينتهي كلُّ شيءٍ، وفي ذلك يقول:

فـــإنْ أمســـيتُ مُكتئبًـــا حزينًـــا ... كثيـــرَ الهـــمِّ يشـــهدُني الحـــذارُ
فقـــد بُـــدِّلتُ ذاك بِـــنُعْمِ بـــالٍ ... وأيَّـــامٍ لياليهـــا قِصـــارُ
بـــأنَّ المـــرءَ لـــم يُخلَـــقْ حديـــدًا ... ولا هَضْـــبًا توقّـــاهُ الوِبـــارُ
ولكـــنْ كالشـــهابِ فـــثمَّ يخبـــو ... وحـــادي المـــوت عنـــه مـــا يحـــارُ
فهـــل مـــن خالِـــدٍ إمَّـــا هلكنـــا ... وهـــل بـــالموتِ - يـــا لِلنـــاسِ- عـــارُ[5]

ويُحاولُ الشاعرُ الجاهليُّ أن يُخفِّفَ مِنْ وطأةِ الموتِ على نفسِهِ، بتعليل النفس بأنَّ الموتَ واقعٌ على الناس جميعًا، وما عليه إلا أن يستسلمَ له، ويرضى بما كتبته له الأقدار، كما قال بشرُ بن أبي خازم:

لا أرى النائبـــاتُ عـــدَّينَ حيًّـــا ... لا لِعُـــدمٍ ولا لكثـــرة مـــالِ[6]

غير أنَّ بعض الشعراء لجأوا إلى ذكر بعض النماذج من الرجال العِظام في عصرهم ممَّن طالهم الموت، على الرغم ممَّا كانوا يتمتَّعونَ به من جاهٍ وسُلطان في حياتهم، ورأوا في هذه النماذج ما يُهوِّنُ عليهم أمرَ الموت، فقال امرؤُ القيس:

أرجِّـــي مـــن صـــروف الـــدهرِ لينًـــا ... ولـــم تغفـــلْ عـــن الصُـــمِّ الهضـــابِ
وأعلـــمُ أنّنـــي عمَّـــا قليـــلٍ ... سأنشَـــبُ فـــي شـــبا ظُفُـــرٍ ونـــابِ
كمـــا لاقـــى أبـــي حُجْـــرٍ وجـــدِّي ... ولا أنســـى قتـــيلاً بـــالكِلابِ[1]

---

(1) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د.نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمَّان، ط٢، ١٩٨٢م: ١٦٦ .

(2) ديوان عبيد بن الأبرص: ١١ .

(3) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م: ٣٤٦ .

(4) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥: ١٥٠ .

(5) ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبَّار المعيبد، بغداد، ١٩٦٥م: ١٣٢- ١٣٣ .

(6) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزَّة حسن، دمشق، ١٩٧٢م: ١٧١ .

ومثلُهُ قولُ الأسودِ بن يعفُر:

فـإنْ يـكُ يـومي قـد دنـا وإخالُـهُ ... كـواردةٍ يومًـا علـى غيـر منهـلِ
فقبلِـيَ مـاتَ الخالـدانِ كلاهُمـا ... عميـدُ بنـي حجـوانٍ وابـنُ المُضـلّلِ
وعمـرُو بـن مسـعودٍ وقـيسُ بـنُ خالـدٍ ... وفـارسُ رأس العـين سـلمى بـن جنـدلِ
وأسـبابُهُ أهلكـنَ عـادًا وأنزلـتْ ... عزيـزًا يُغنّـي فـوقَ غُرفـةِ مُوكَـلِ[٢]

والشاعرُ هنا ((لم يكن يذكر الذين صرعهم الموت من أعزَّةِ قومه، وإنَّما ذهب إلى أبعدَ من ذلك، فذكرَ (عادًا) ليُقرِّرَ القناعةَ بأنَّ منعة الغابرين الذين تحوَّلت سِيَرُهُم إلى ما يُشبِهُ الأساطير، لم تكن ذات جدوى هي أيضًا في مواجهتهم للمصير المحتوم))[٣]. غيرَ أنَّ معنى الخلود نجدُهُ واضحًا في شعر السَمَوأل، وهو يرى أنَّ الخلودَ الذي يبغيه الإنسانُ في حياتِهِ، هو ضربٌ من الوهم، وكلُّ حيٍّ هالكٌ، ولابدَّ للإنسان أن يعرفَ هذه الحقيقةَ، ويؤمنُ بها، ويكونُ على بيّنةٍ منها، فيقول:

إنَّ امـرءًا أمِـنَ الحـوادثَ جاهـلٌ ... يرجـو الخلـودَ كضـاربٍ بِقِـداحِ
لا تبعـدَنَّ فكُـلُّ حـيٍّ هالـكٌ ... لابُـدَّ مِـنْ تَلَـفٍ فَـبِنْ بفـلاحِ[٤]

ويُردِّدُ المعنى ذاته أبو زبيدٍ الطائي في مرثيَّتِهِ لأخيه بعدما رأى أنَّ طولَ الحياةِ لا يدُلُّ على سعادة الإنسان، ما دامت هذه الحياة مهما طالت، فسوفَ يعقبُها موتٌ ممَّا يجعلُ حياة الإنسانِ غير سعيدة؛ لأنَّ تذكُّرَ الموت يُنغِّصُ على صاحبِها عيشَهُ، فيقول:

إنَّ طـولَ الحيـاةِ غيـرُ سـعودِ ... وضـلالٌ تأميـلُ نيـلِ الخلـودِ[٥]

ويُردِّدُ المعنى ذاته الشاعرُ قيس بن الخطيم، فيقول:

ومـن يـكُ غـافلاً لـم يلـقَ بؤسًـا ... يـنِخْ يومًـا بسـاحته القضـاءُ
تناولـه بنـات الـدهر حتـى ... يُثلِّمُـهُ كمـا انـثلم الإنـاءُ
فقُـلْ للمُتَّقـي عَـرَضَ المنايـا ... تـوقَّ، ولـيس ينفعُـكَ الوقـاءُ[٦]

غيرَ أنَّ هناك رؤيا أخرى للموت، وجد فيها الشاعرُ الجاهليُّ الموتَ بأنَّهُ الخلاصُ من رحلةِ المتاعب، فالحياةُ في نظرِ هؤلاء الشعراء مليئةٌ بالأسقامِ والأحزانِ، وإنَّ الإنسانَ يتعذَّبُ فيها، ويشقى في أتونها، فيأتي الموتُ ليضعَ حدًّا لحياتِهِ التي ضاقَ بها ذرعًا، وإنَّ مثلَ هذه الرؤيا تشبهُ ما دعا إليه الرومانسيُّونَ في العصر الحديث؛ إذ كانوا يُحبُّونَ الموتَ ويدعونَ إليه، بعدما رأوا فيه المُنقذَ لهم من هذه الحياة التعيسة[٧] التي يعيشونها، ونجدُ مثلَ هذه الدعوة في شعر الأعشى وهو يقول:

لَعَمْـرُكَ مَـا طُـولُ هـذا الـزَّمَنْ ... عَلـى المَـرْءِ، إلاّ عَنَـاءٌ مُعَـنْ
يَظَـلّ رَجِيمـاً لرَيْـبِ المَنُـون ... وَللسّـقْمِ فـي أهْلِـهِ وَالحَـزَنْ
وَهَالِـكِ أهْـلٍ يُجِنّونَـهُ ... كَـآخَرَ فـي قَفْـرَةٍ لَـمْ يُجَـنْ
وَمَـا إنْ أرَى الـدّهرَ فـي صَـرْفِهِ ... يُغـادِرُ مِـنْ شَـارِخٍ أوْ يَفَـنْ[٨]

ويكادُ طرفةُ بنُ العبدِ يُردِّدُ المعنى ذاته الذي قاله معظم الشعراء الجاهليّين، وهو أنَّ الموتَ واقعٌ على الجميع، ولم ينجُ منه أحد، وأنَّ حبله المتين قد ضرب على أعناق البشر جميعهم، ولم يبقَ سوى ما تأمُرُ به الأقدار، حينها يُقادُ الإنسانُ إلى حتفِهِ، فيقول:

لعمـرُكَ أنَّ المـوتَ مـا أخطـأ الفتـى ... لكـالطِولِ المُرخـى وثنيـاهُ باليـدِ
متـى مـا يشـأ يومًـا يقُـدْهُ لِحَتفِـهِ ... ومـنْ يـكُ فـي حبـلِ المنيَّـةِ ينْقَـدِ[٩]

ورُبَّما كان هذا الشعور هو الذي جعلَ طرفة بن العبد حزينًا، كئيبًا، يائسًا من الحياة، يتغنَّى بأحزانِهِ على شاكلةِ الرومانسيّين، ويعيشُ غربةً في حياتِهِ، وينطوي على نفسِهِ، ويهرُبُ من واقعِهِ إلى احتساء الخمر، أو إلى

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٤ .

(٢) ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م: ٥٦– ٥٧ .

(٣) دراسات نقدية في الأدب العربي: ٢٣٥ .

(٤) شعر السموأل، تحقيق وشرح عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م: ٣٠ .

(٥) شعر أبي زبيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م: ٤٢ .

(٦) ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م: ٧١ .

(٧) عبد الرحمن شكري ناقدًا شاعرًا: ٢٢١ .

(٨) ديوان الأعشى الكبير: ١٥ . الرجيم: الملعون، يجُنونه: يسترونه في الأرض ويدفنونه .

(٩) ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بحلب: ٣٥ .

أحضان النساء أو التعبير عن مروءته وإنسانيَّتِهِ التي وجد فيها مُتعةً تُبرِّرُ له تحمُّلَ أعباءِ الحياةِ القاسيةِ، ولولا هذه الأشياء الثلاثة لرحَّبَ بالموتِ، ولم يعبأ به كما قال:

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الفتى ... وجدِّكَ لم أحفلْ متى قامَ عُوَّدي

فَمِنهُنَّ سبقُ العاذلاتِ بشَربةٍ ... كُميْتٍ متى ما تعلَ بالماءِ تُزبِدِ

وكرِّي إذا نادى المُضافُ مُحنِّبًا ... كَسِيدِ الغضى، نبَّهتَهُ، المُتورِّدِ[1]

وسارَ طرَفةُ نحو الموتِ بِخُطًى ثابتةٍ غيرَ خائفٍ، بعدما ((اقتنعَ رغمَ حداثةِ السنِّ، بأنَّ الموتَ حقيقةٌ ماثلةٌ للعيانِ في كُلِّ لحظةٍ، لقد كان طرفةُ قريبًا في توجُّهِهِ من الوجوديّين الذين أعلنوا عبثيَّةَ الحياة، تلك الحياة التي لا تستندُ حسب رأيهم إلى أيِّ أساسٍ ماهوي...فالوجودُ عدمٌ، والموتُ بذرةٌ كامنةٌ في جسدِ الحيِّ مُنذ ولادتِهِ. لقد أدركَ الشاعرُ الجاهليُّ الشابُّ أنَّهُ من العبَثِ إضاعةُ هذه الفرصةِ الوجيزة بعيدًا عن اللذّة:

كريمٌ يُروِّي نفسَهُ في حياتِهِ ... ستعلمُ إن مِتنا غدًا أيُّنا الصدي

أرى قبرَ نحَّامٍ بخيلٍ بمالِهِ ... كقَبْرِ غويٍّ في البطالةِ مُفسِدِ

ترى جُثوَتينِ من تُرابٍ عليهما ... صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنضَّدِ

أرى العيشَ كنزًا ناقصًا كُلَّ ليلةٍ ... وما تُنقِصِ الأيَّامُ والدهرُ ينفَدِ

ما أوصى به طرَفةُ من استنزاف كلّ هنيهة في ما يعطي للحياةِ معنًى))[2]. غير أنَّهُ لم يخشَ الموتَ ومضى إليه برباطة جأش بعدما أدركَ أنَّ الحياةَ زائلةٌ، فأرادَ أن يضعَ حدًّا لحياتِهِ العبثيَّةِ، وما رافقها من ضنكِ العيش، وما اعترضَ سبيلَهُ من مشاكلَ جعلته يضيقُ ذرعًا بها، فقال:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرَ الوغى ... وأنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلِدِي

فإنْ كُنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيَّتي ... فدعني أبادِرْها بما ملكتْ يدي[3]

ونجدُ مثلَ هذه الرؤيا التي تقولُ أنَّ المرءَ يحملُ بذور فنائهِ منذ الولادة، وما عليه إلا أن يخضعَ للأمرِ الواقعِ، وأن يتجرَّعَ كأسَ الموت، لدى كثيرٍ من شعراء العصر الجاهلي ومنهم السَمَوْأل في هذه الأبيات التي حاولَ فيها أن يتعمَّقَ في حقيقةِ الموتِ والحياة في قوله:

اسلم سلِمتَ ولا سليمَ على البِلى ... فنِيَ الرجالُ ذوو القِوى ففنيتُ

كيفَ السلامةُ إن أردتُ سلامةً ... والموتُ يطلبني ولستُ أفوتُ

وأقيلُ حيثُ أرى فلا أخفي له ... ويرى فلا يعيا بحيثُ أبيتُ

ميْتًا خُلِقتُ ولم أكُنْ مِن قبلها ... شيئًا يموتُ فمتُّ حيثُ حَيَيْتُ

وأموتُ أخرى بعدها ولأعملنْ ... إنْ كان ينفعُ أنّني سأموتُ[4]

وفعل بعض شعراء الجاهليَّة مثل ما فعلَ شعراء مدرسة القبور الإنكليزية، الذين كانوا يعيشونَ حيثُ يرقُدُ الموتى، ويقفونَ في هدأةِ الليل، أمام القبور، ثمَّ ينظمونَ ما يدورُ في بالهم من خواطرَ وهواجسَ، وكانَ أصحابُ مدرسة القبور يرونَ أنَّ القبرَ وما حواهُ من الأهلِ والأحباب، كان موضوعًا مُحبَّبًا لهم، وكان الليلُ موحيًا لهم بخواطرَ تدورُ حولَ الموتِ والخلود[5]، فقد وقف الشاعرُ عديُّ بن زيد العبادي عند إحدى المقابر، وسجَّلَ خواطرَهُ الشعريَّةَ، كما يفعلُ بعضُ الشعراءِ الرومانسيين في العصر الحديث، غير أنَّ عديَّ بن زيد لم يذهبْ بعيدًا بخيالِهِ، ويُصوِّرُ لنا أدقَّ هواجسِهِ التي انطبعتْ في ذهنِهِ وهو يرى منظرَ القبور، بل وقفَ عند حدود العبرةِ والموعظةَ، وما ينتظرُ الإنسانَ من مصيرٍ حزين، ورأى في القبور شاهدًا على زوال الحياة، وانطفاء شعلتها، وما تتركُهُ هذه المشاعرُ على نفسِ الإنسانِ، من انكسارٍ، ويأسٍ، ورؤيةٍ قاتمةٍ للوجودِ تدعوهُ ألّا يفرحَ بالنعيمِ الذي هو فيه، أو النجاحات التي حقَّقها في حياتِهِ. وقد صاغَ عديُّ بنُ زيد هذه الرؤيا بأسلوبٍ قصَصيٍّ جميل وظَّفَ فيها بعض القصص التاريخي توظيفًا مُوفَّقًا في التعبير عن نظرتِهِ الحزينةِ المُتشائمةِ، فقالَ ذلك على لسان قبور الموتى:

من رآنا فلْيُحدِّثْ نفْسَهُ ... إنّهُ مُوفٍ على قَرْنِ زوالْ

وخطوبُ الدهرِ لا يَبْقَى لها ... ولما تأتي بهِ صُمُّ الجِبالْ

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا ... يشربونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالْ

عَمِروا دهرًا بِعَيْشٍ حَسَنٍ ... آمني دَهْرَهُمُ غيرَ عِجالْ

---

(1) ديوان طرفة بن العبد: ٣٤ .

(2) الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م: ١٣١ .

(3) ديوان طرفة: ٣٣ .

(4) شعر السموأل: ٢٩ .

(5) ينظر: جماعة الديوان، الدكتور يسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م: ١١٣ .

ثـمَّ أضـحوا أخنـعَ الـدهرُ بهـم ... وكـذاكَ الـدهرُ يـودي بالجبـالْ[١]

وقصَّةُ نظمِ هذه الأبيات تقولُ أنَّ النُعمانَ بنَ المُنذرِ - ملكَ الحيرة- خرج يتنزَّهُ بظهر الحيرة، ومعهُ عديُّ بنُ زيد، فمرَّا على المقابرِ من ظهرِ الحيرة، فقالَ له – أبيتَ اللعنَ- أتدري ما تقولُ هذهِ المقابر؟ قال: لا، قال: فإنَّها تقول[٢]:

أيُّهـا الركـبُ المُخبُّـو (م) ... نَ، علـى الأرضِ المُجـدُّونَ

فكمـا أنـتُمْ كُنّـا ... وكمـا نحـنُ تكونـون[٣]

وتغنَّى بعضُ الشعراء الجاهليِّين بآلامهم، وأشجانهم؛ لعلَّ ذلكَ يُخفِّفُ من وطأةِ الألمِ الذي اجتاحَ نفوسهم التي أعياها شبحُ الموت الذي ظلَّ يُطاردُ نفوسهم بين الحين، والحين، وعملَ على إفسادِ متعة الحياة لديهم، ممَّا حدا بالشاعر عديّ بن زيد العبادي إلى أن يتمنَّى ما تمنَّاهُ بعض الرومانسيين المُحدثين، أن يعيشوا مثل الأقوام البدائيَّة الجاهلة بحقيقة الحياة، إذ تجري الأيامُ من حولهم، من دون أن يكترثوا بها، وهم لا يعبؤوا بها[٤]، فعديُّ بنُ زيد يرى أنَّ الجهلَ من لذَّةِ الفتى؛ لأنَّ الجاهلَ غيرَ المُتعلّمِ، قد تمرُّ به أيامٌ جائرةٌ، ويتجرَّعُ مرارتها، ويُقارعُها مُقارعةً سلبيَّةً من غير أن تتركَ في نفسِهِ آثارًا عميقةً تجعلُهُ يحتسبُ لها، فالجاهلُ في كثيرٍ من الأحيان يُرجِعُ كثيرًا من الظواهر الحياتيَّة التي تؤذيه، وتُعكِّرُ صفوَ حياتِهِ، إلى أسبابٍ غيبيَّةٍ، ويرضى بما يقعُ عليه من غَبَنٍ وسوءِ حال، تحتَ هذه التعليلات الساذجة، أمَّا المُتعلِّمُ فيُرجِعُ الأمورَ إلى أسبابِها الحقيقيَّة، وعندما يجدُ نفسَهُ عاجزًا عن الحلِّ، فإنَّ ذلك يؤرِّقُهُ ويُعذِّبُهُ في الحياة، ونجدُ ذلكَ واضحًا في قولِ عديِّ بن زيد:

أعـاذلُ إنَّ الجهـلَ مـن لـذَّةِ الفتـى ... وإنَّ المنايـا للرجـالِ بِمَرصَـدِ

أعـاذلُ مَـنْ تُكتَـبْ لـه النـارُ يَلْقَهـا ... كفاحًـا، ومـنْ يُكتَـبْ لـه الفـوزُ يُسـعَدِ

أعـاذلُ مـا يُـدريكِ إلا تظنّنًـا ... إلى ساعةٍ في اليومِ أو في ضُحى الغدِ[٥]

أمَّا امرؤُ القيس، فقد استغربَ من أمرِ الناسِ الذين يتجاهلونَ ما ينتظرُهُم من مصيرٍ مؤلمٍ، وهم مُنغمسونَ في الحياةِ الدُنيا، لا همَّ لهم سوى إشباع بطونِهم من مأكلٍ وشرابٍ، وينسونَ أنَّ الموتَ يتربَّصُ بهم سوءًا، فقد تركت هذه الرؤيا الحزنَ، والتشاؤمَ في نفس امرئ القيس الذي كان يُدركُ حقيقة الحياة، وما تؤولُ إليه، في حين أنَّ معظمَ الناس يجهلونَ هذه الحقائق، لذلك ينعمونَ بالحياةِ في حين أنَّ الشاعرَ ذا الحسِّ المُرهَفِ يتعذَّبُ لذلك، فقال:

أرانـا مُوضِـعينَ لأمـرِ غيْـبٍ* ... ونُسـحَرُ بالطعـامِ وبالشـرابِ**

عصـافيرٌ، وذِبَّـانٌ*، ودُودٌ ... وأجـرأ مـن مُجلِّحـة الـذئابِ**

فـبعضُ اللـومِ عـاذلتي فـإنّي ... سـتكفيني التجـاربُ وانتسـابي

إلـى عِـرق الثـرى وشـجت عُروقـي ... وهـذا المـوتُ يَسـلِبُني شـبابي

ونفسـي سـوف يسـلبني وجُرْمـي ... فيُلحِقُنـي وشـيكًا بـالتُرابِ[٦]

ونجدُ حالةَ القلق واضحةً لدى الشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو يتأمَّلُ الحياةَ، والموت. ويُمكننا أن نلمسَ اللوعةَ التي تركتها هذه المشاعرُ في نفسِهِ، وهو يرى أنَّ الموتَ كُتِبَ على الإنسان، وهو شبحٌ يؤرِّقُهُ في حياتِهِ؛ لأنَّهُ يشعرُ بأنَّهُ – أي الموت- قريبٌ منه، ويمكنُ أن يُجهِزَ عليه في أيِّ وقتٍ، وما زادَ من ألَمِهِ وحُزنِهِ أنَّ هذا الموتَ لا أحدَ يُدرِكُ ماهيَّتَهُ، ويعرفُ أسرارَهُ، حتَّى الساحرات اللواتي شِيعَ عنهُنَّ معرفةُ أسرارِ الغيب، وفعلُ الخوارقِ، فإنَّهُنَّ يقفنَ عاجزاتٍ أمامَ الموت، فقال:

فـلا تَبْعَـدَنْ إنَّ المنيَّـةَ موعِـدٌ ... عليـكَ فـدانٍ(*) للطلـوعِ وطـالِعُ

أعـاذلُ مـا يُـدريكِ إلا تظنِّيًـا(**) ... إذا ارتحـلَ الفتيـانُ مَـن هـو راجِـعُ؟

---

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢- ٨٣ .

(٢) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت: ٢/ ٥١٤ .

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٨٠ .

(٤) ينظر: الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م: ٨٣ .

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٠٣ .

* أي مُسرعين للموتِ المغيّب .

** نُسحرُ: نُلهى ونُخدَعُ .

*** عصافير وذبان: أي مخلوقات ضعيفة، ومجلحة الذئاب: وهي المصممة على شيء التي لا ترجع عما تريد.

(٦) ديوان امرئ القيس: ٤٣ .

(*) الداني: القريب، الطالع سيرًا عن الداني للطلوع .

(**) التظني: الظن والتخمين وعدم اليقين، يشير إلى أنّ الإنسان لا يعرف ما يحمله الغيب في طياته .

أتجـزَعُ ممَّـا أحـدثَ الـدهرُ بـالفتى ... وأيُّ كـريمٍ لـم تُصِـبْهُ القـوارعُ
تُبكِّي(***)على إثْرِ الشبابِ الذي مضى ... ألا إنَّ أخـدانَ الشـبابِ الرعـارعُ
لعمـرُكَ مـا تـدري الضـواربُ بالحصى ... ولا زاجـراتُ الطيـرِ(****) مـا الله صـانعُ
سـلُوهُنَّ إنْ كـذَّبتموني متـى الفتـى ... يـذوقُ المنايـا، أو متـى الغيـثُ واقـعُ؟(١)

وصاغَ بعضُ الشعراء تأمُّلاتِهم في الحياة، والموت، على شكل أقصوصةٍ شعريَّةٍ، بعدما أطلقوا العنان لخيالهم؛ لِيُصوِّروا لنا ما يؤولُ إليه مصيرُ الإنسان بعد الموت، فصوَّرَ لنا أُميَّةُ بن أبي الصلت عاقبةَ المُجرمين، وكيف يُساقونَ إلى العقابِ الذي ينتظرُهُم وهم عُراةٌ مُقيَّدونَ بالسلاسلِ، ويُعذَّبونَ بالضربِ على رؤوسهم بالمقامع، ثُمَّ يُصلَونَ بالنارِ ويُطلقونَ الأصوات التي تدُلُّ على ما يلقونَهُ مِن شِدَّةِ العذاب الذي وقعَ عليهم، وهي صورةٌ مُرعبةٌ رسمها الشاعرُ لما يعقُبُ موتَ الخلق، وقد استقى الشاعرُ هذه المعاني والأخيلة بما كان سائدًا في عصرِهِ من مُعتقداتٍ دينيَّةٍ، ثمَّ أضفى عليها شيئًا مِنْ خيالِهِ، فقالَ:

فكـلُّ مُعمِّـرٍ لابـدَّ يومًـا ... وذي دُنيًـا يصـيرُ إلـى زوالِ
ويفنـى بعـدَ جِدَّتِـهِ ويبلـى ... سـوى البـاقي المُقـدَّسِ ذي الجـلالِ
وسـيقَ المُجرمـونَ وهـم عُـراةٌ ... إلـى ذاتِ المقـامعِ والنكـالِ
فنـادوا ويلنـا ويـلاً طـويلاً ... وعجُّـوا فـي سلاسـلها الطـوالِ
فليسـوا ميِّتـينَ فيسـتريحوا ... وكلّهُـمُ بِحَـرِّ النـارِ صـالِ(٢)

وهذه الأبيات الشعريَّة، تُذكِّرُنا بما نظمه بعض الشعراء الرومانسيين المُحدَثين من قصائدَ ذات طابعٍ قصصيّ، يحكي لنا ما تضطربُ به نفسُ الشاعر الرومانسي، من قَلَقٍ، واضطرابٍ في حياتِهِ، بحيث يذهبُ به الخيالُ إلى أن يُصوِّرَ لنا مشهدًا من حياةِ الآخرة، وهي في حقيقة أمرِها تُصوِّرُ ما تزخرُ به حياتُهُ من صراعات، فضلاً على ما تسرَّبَ إلى ذهنِهِ مِن قَصَصٍ تُصوِّرُ ما ينتظرُ الإنسانَ في آخرتِهِ من حسابٍ، وعقابٍ. وقد صاغ ذلك بأسلوبٍ خياليٍّ بعيد، وفي ذلك يقول الشاعر (عبد الرحمن شكري) مُصوِّرًا يوم البعث والنشور:

مـرَّتْ علـيَّ قـرونٌ لسـتُ أحفظهـا ... عَـدًّا كـأنْ مـرَّ بـي الآبـاءُ والقِـدَمُ
حتَّـى بُعِثْـتُ علـى نفـخِ الملائـكِ فـي ... أبـواقِهِم، وتنـادت تِلكُـمُ الـرِّمَمُ
وقـامَ حـولي مـن الأمـواتِ زعنفـةٌ ... هوجـاءُ كالليـلِ حـمٌّ لُجُّـهُ عَـرِمُ
فـذاكَ يبحـثُ عـن عـينٍ لـه فَقِـدتْ ... وتلـكَ تُعوِزُهـا الأصـداغُ واللِمَـمُ
ورُبَّ غاصـبِ رأسٍ لـيس صـاحبَهُ ... وصـاحبُ الـرأسِ يبكيـه ويختصـمُ(٣)

ولابدَّ من القول أنَّ قصيدة (عبد الرحمن شكري)، موغلةٌ في الخيال، وجاء بهذه الصور الخيالية التي تحكي قلقه العميق في حياته المضطربة، وما يشوبها من صراعات محتدمة بين البشر. أمَّا أُميَّةُ بن أبي الصلت، فجاءَ خيالُهُ في حدود ما استقرَّ في ذهنِهِ من معتقدات دينيَّة كانت معروفةً في عصرِهِ، ثمَّ أضفى عليها شيئًا من خيالِه، لكنَّ ذلك في الأحوالِ كلِّها يُعطي صورةً عن قلق الشاعر في حياتِهِ، وتوجُّسِهِ من الموت، ممَّا دعاهُ إلى أن يرسمَ هذه الصورةَ المُرعبةَ للحياة الأخرى.

ونظمَ عديُّ بن زيد قصيدةً في تأمُّلِ الحياة، وخرجَ من هذا التأمُّلِ بالخيبة، والانكسار النفسي، بعدما اتَّضحَ له أنَّ الحياةَ زائلةٌ، ولم ينفع الإنسانَ ما حصلَ عليه من مُلكٍ وجاهٍ في الحياة، وما أحرزَهُ فيها من رُقيٍّ، وساقَ لذلك بعض القصص التاريخي، ممَّا حلَّ بأشهر ملوك عصرِهِ، وهم ملوك الفرس والروم الذين كان العالَم آنذاك يدينُ لهم بالولاء، ولا يُنازِعهم فيه أحد، فخرجَ الشاعرُ إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّ الناسَ جميعًا ينتظرُهم المصير نفسه الذي لم يستثنِ الملوكَ الأكاسرةَ والقياصرة، وملوك الحضر، والخورنق، فالكُلُّ يعصفُ بهم الدهر، وينثر سنوات عمرهم، كما تنثر ريحُ الخريف أوراق الشجر، فقال عديٌّ:

أَرَوَاحٌ مُـودِّعٌ، أم بُكـورُ؟ ... لـك فـاعلم لأيِّ حـالٍ تصـيرُ

ثمَّ يقول:

أيُّهـا الشـامِتُ المُعيِّـرُ بالدَّهــ ... ـرِ، أأنـتَ المُبـرَّأُ الموفـورُ؟
أمْ لـديكَ العهـدُ الوثيـقُ مـن الأيــ ... ـامِ، بـلْ أنـتَ جاهـلٌ مَغْـرُورُ؟
مَـن رأيـتَ المنـونَ خلَّـدْنَ، أم مَـنْ ... ذا عليـه مِـنْ أن يُضـامَ خفيـرُ؟
أيـنَ كِسْـرى كِسْـرى المُلـوكِ أنُوشُـرْ ... وانَ، أم أيـنَ قبلـه سـابورُ

(***) تُبكي، أي العاذلة، الأخدان: الأخوان، الرعارع: جمع رعرع وهو الشاب الحسن القوام .

(****) زاجرات الطير: إشارة إلى عادة العرب في زجر الطير للتنبؤ بالآتي .

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدَّم له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢: ١٧١– ١٧٢ .

(٢) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره: ٣٨٥ .

(٣) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ١٥٤ .

وبنـو الأصـفرِ الملـوكُ مُلـوكُ الـرُّ ... ومِ، لَـمْ يَبْـقَ مِـنْهُمُ مـذكورُ
وأخـو الحَضْـرِ إذ بنـاهُ، وإذ دِجْـ ... ـلـةَ تُجبَـى إليـهِ، والخـابورُ
لـم يَهَبْـهُ ريـبُ المنـونِ، فبـادَ الـ ... ـمُلْـكُ منـهُ، فبابُـهُ مهجـورُ

ثمَّ يُنهي قصيدته بقولِهِ:

ثـمَّ بعـد الفـلاحِ والمُلـكِ والإ ... مَّـةِ وارتْهُـمُ هنـاكَ القبـورُ
ثـمَّ أضـحوا كـأنّهُمْ ورقٌ جـفَّ ... فـألوتْ بـه الصَّـبا والـدَّبورُ*(١)

شعرُ الطبيعة

ونجد بعض التأملات البسيطة التي حاول من خلالها الشاعر الجاهليُّ أن يخلعَ شيئًا من مشاعرِهِ، وأحاسيسِهِ على الطبيعة، ويرى في الطبيعة ما يُعبّرُ عمَّا يجيشُ في خاطرِهِ من هواجسَ وعواطف، فالشاعرُ لبيدُ بن ربيعة العامري رأى في لمعان الشهاب، وانطفائِهِ بما يشبَهُ حياةَ الإنسانِ الذي يرى نور الحياة في ولادتِهِ، ثمَّ ينطفئُ هذا النورُ في وفاتِهِ، فالشهابُ يُعبّرُ عن الحقيقة المُرَّة التي تتجلّى فيها مأساةُ الإنسان، فقال:

ومـا المـرءُ إلا كالشـهابِ وضـوئِهِ ... يحـورُ رمـادًا بعـد إذ هـو سـاطعُ(٢)

ونرى الصورةَ التي استقاها الشاعرُ الجاهليُّ من الطبيعة، عن حياة الإنسان التي تنتهي إلى الموت، أكثر وضوحًا في شعر حسَّان السعدي، وهو يرى ما يحلُّ بالإنسانِ من نهايةٍ مُحزنة مع تقادم الأيام، تتمثّلُ بالقمر الذي يهلُّ صغيرًا، ثمَّ يكبرُ ويزداد نورهُ إشعاعًا حتى يبلغ التمام، ثمَّ يبدأُ بالتضاؤلِ مع الأيَّامِ، فيخبو ضوؤُهُ مع الأيَّام حتَّى يزول، وهذا النوع من التشبيه يُسميّه البلاغيُّونَ بالتشبيه التمثيلي، إذ يكون وجه الشبه منتزعًا من أشياء مُتعدِّدة(٣)، وفي ذلك يقول:

ومهمـا يكـن مـن ريـبِ دهـرٍ فـإنّني ... أرى قمـر الليـلِ المُعـذّبِ كـالفتى
يهـلُّ صـغيرًا، ثـمَّ يعظـمُ ضـوءُهُ ... وصـورتُهُ حتَّـى إذا مـا هـو اسـتوى
تقـارب يخبـو ضـوءُهُ وشـعاعُهُ ... ويمصـحُ* حتَّـى يستسـرَّ فمـا يُـرى(٤)

أمَّا كعب بن زهير، فقد رأى ما رآهُ غيرُهُ، من شعراء العصر الجاهلي، بأنَّ المرءَ، والمالَ ينموانِ إلا أنَّهما يفنيانِ مع مرور الأيام، وتقادم الزمن، ورأى هذه الصورة، قد تجسَّدت بالغصنِ الذي يبدأُ ناعمًا جذلاً إلى أن يصفرَّ ورقُهُ، ويتساقطُ، ويذبُلُ، ويموتُ، وهذا ما يُذكّرُنا بأخيلة الرومانسيين المُحدثين الذين يرونَ تساقطَ أوراقَ الشجر، في فصل الخريف، ما يشبهُ تساقطَ سنوات عمر الإنسان، في أثناء رحلتِهِ في الحياة، لذلك كان هذا المنظرُ يثيرُ الحزنَ في نفوسِهِم؛ لأنَّهم يرونَ فيه ذبول الحياة(٥)، وفي ذلك قال كعبُ بنُ زهير:

والمـرءُ والمـالُ يُنمـى ثـمَّ يُذهِبُـهُ ... مـرُّ الـدهورِ ويفنيـه، فينسـحقُ
كالغصـنِ بينـا تـراهُ ناعمًـا هَـدِبًا ... إذ هـاجَ وانحـتَّ عـن أفنانِـهِ الـورَقُ(٦)

ورُبَّما اقتربَ من هذه المشاعر عديُّ بنُ زيدٍ في قولِهِ الذي سبَقَ أن ذكرناهُ:

ثـمَّ أضـحوا كـأنّهم ورقٌ جـفَّ ... فـألوتْ بـه الصَّـبا والـدَّبورُ(٧)

وتكرَّرت مثلُ هذه الصورةِ المُستقاة من الطبيعة التي تُصوّرُ كيف تمضي حياةُ الإنسان نحو الأفول، لدى كثيرٍ من شعراء الجاهليَّة، ومنهم حاتمُ الطائيُّ الذي قال:

عريـتُ عـن الشـبابِ وكنـتُ غـضًّا ... كمـا يعـرى عـن الـورقِ القضـيبُ(٨)

وهكذا وظَّفَ الشاعرُ الجاهليُّ عناصرَ الطبيعةِ؛ للتعبير عن حالته النفسية، فهذا الشاعر بشر بن أبي خازم مثل طَرَفة بن العبد يدعو الإنسانَ إلى أن يستمتعَ بالحياةِ؛ لأنَّ الشبابَ مثلُ السحاب الذي تحمله الرياح، فإذا ولَّى فسوفَ لن يعودَ، فقال:

وكـلُّ غَضـارةٍ لـكَ مـن حَبِيْـبٍ ... لهـا بـكَ، أو لَهَـوتَ بـه متـاعُ

---

* الإمّة: النعمة، الدبور: الريح التي تقابل الصبا .

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٤– ٨٨ .

(٢) ديوان لبيد: ١٦٩ .

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط١٠، الأردن: ٥٨ .

* يمصح: يذهب، ويستسر: أي أنَّ القمر في آخر لياليه يختفي بيومين، ومن ثمَّ يتجدَّد طلوعه بداية الشهر.

(٤) الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، د.ت: ٤٧٨ .

(٥) ينظر: الشعر العربي في المهجر، د.إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م: ١٠٧ .

(٦) ديوان كعب بن زهير رواية السُكَّري، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٨م: ١٦٦ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٩٠ .

(٨) حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، العبد لكاني الزوزني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعيبد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م: ٧ .

قلـــيلاً والشـــبابُ ســـحابُ ريـــحٍ إذا ولّـــى، فلـــيسَ لـــه ارتجـــاعُ[١]

وقف الشاعر الجاهلي أمام الليل، كما يقفُ الشاعرُ الرومانسي في العصر الحديث، فوجد فيه خير مُعبِّرٍ عن حالته النفسية الحزينة، التي تلبَّدت بسُحُبِ الهموم والأحزان، وزادها حزنًا وسوادًا ليلُهُ الحالكُ السواد، ((فهذه الصورةُ التي رسمها الشاعرُ لليل ليست مُجرَّدَ صورةٍ حرفيَّةٍ أمينةٍ لليلِ، لكنَّها صورةٌ لليل الشاعرِ الطويل المليء بالهموم، إنَّ ضخامةَ الهموم التي يُعانيها الشاعر هي التي حوَّلت الليلَ فجعلته كموج البحر الهدّار، ومن خلال صورة الجملِ الذي تمطّى بصُلبه، وأردفَ أعجازَهُ وناءَ بكلكله نحُسُّ بثقل الهموم على نفسِهِ، وكيف أنَّها انتشرت وامتدّت في كلِّ زاويةٍ من زوايا نفسه))[٢]، وفي ذلك يقول:

وليـلٍ كمـوجِ البحـر أرخـى سُـدُولَهُ علـيَّ بـأنواعِ الهمـوم ليبتلـي

فقلـتُ لـه لمَّـا تمطّـى بجـوزِهِ وأردف أعجـازًا ونـاءَ بكلكـلِ

ألا أيُّهـا الليـلُ الطويـلُ ألا انجلـي بصُـبحٍ، ومـا الإصباحُ عنـك بأمثـلِ[٣]

ووجدَ الشاعرُ الجاهليُّ في البرقِ ما يُثيرُ وجدانَهُ وأحزانه، ويتَّخذُ من المطر ((ذريعةً للذكرى أو يُعتبرُ سببًا للأرق والهموم...فهو يتخيَّلُ في السحاب والبرق مأتمًا يبكي فيه عليه))[٤]، فقال عديُّ بنُ زيد:

أرِقْـتُ لِمُكْفَهِـرٍّ بـاتَ فيـهِ بـوارقُ يـرتقينَ رؤوسَ شـيبِ

تَلُـوحُ المشـرفيَّةَ فـي ذُراهُ وَيَجلـو صَـفْحَ دَخْـدارٍ قَشِـيْبِ

كـأنَّ مآتمًـا باتـتْ عليـهِ خَضَـبْنَ مآليـاً بـدمٍ صَـبيبِ

يُلألِـئنَ الأكُـفَّ علـى عَـديٍّ ويُعطِـفُ رجعُهُـنَّ إلـى الجُّيـوبِ[٥]

الخيرُ والشر

أمَّا الثنائيَّةُ الثانية، التي شُغِلَ فيها الشاعرُ الجاهليُّ، فهي ثنائيَّةُ الخير والشر، التي كانت هي الأخرى، مصدر قلقه واضطرابه في هذه الحياة، وحاولَ أن يتعمَّقَ بهذه الظاهرة، وأن يعرفَ أسرارها، ويحُلَّ طلاسمها، غير أنَّهُ وقفَ عند ظواهر الأشياء، ولم يغُص في الأعماق، وجاءت رؤيتُهُ بسيطةً، ساذجة، ممَّا جعله يُعبِّرُ عن ألمِهِ، وخيبتِه، وهو يدفعُ الثمنَ باهظًا، من جرَّاءِ اصطراع الخير والشر في حياتِهِ من دون أن يجدَ تعليلاً منطقيًّا يشفي ظمأهُ. ويمكنُ أن نلمسَ ما قلناه في شعر المُثقَّبِ العبدي الذي يرى أنَّ الشرَّ يُلاحقُهُ، على الرغم من أنَّهُ يبغي الخير، ولا يعرفُ سبب ذلك، فقال:

ومـا أدري إذا يمَّمـتُ أمـرًا أريـدُ الخيـرَ أيُّهمـا يلينـي؟

أألخيـرُ الـذي أنـا أبتغيـه أم الشـرُ الـذي هـو يبتغينـي[٦]

ويُعبِّرُ الشاعر سويد بن عامر المصطلقي، عمَّا يضطربُ في نفسِهِ، من مشاعرِ القلق والخوف، وعدم الأمان ممَّا ينتظرُهُ في دنياهُ، وما تُخبِّئُهُ له الأيام ممَّا لا يُحمَدُ عقباهُ نتيجة اصطراع الخير والشر، فقال:

لا تـأمَنَنَّ وإن أمسـيتَ فـي حـرمٍ إنَّ المنايـا بجنبـي كُـلِّ إنسـانِ

فـالخيرُ والشـرُّ مقرونـانِ فـي قـرنٍ بكُـلِّ ذلـك يأتيـك الجديـدانِ[٧]

ويرى النابغة الذبياني، أنَّ الحياةَ تتقلَّبُ بين الخير والشر، ولكلٍّ منهما وقتٌ مُحدَّد، ثمَّ يمضي، فقال:

ولا يحسـبون الخيـر لا شـرَّ بعـدَهُ ولا يحسـبونَ الشـرَّ ضـربةَ لازِبِ[٨]

وعبَّر الشاعرُ الجاهليُّ عن ثنائية الخير والشر، من خلال رموزٍ استقاها من بيئته، فقد رأى الجاهليُّونَ في بعض أنواع الطيور، ما يبعثُ الشؤمَ في حياتهم، وكانوا يتطيَّرون من رؤيتها؛ لأنَّهم يعتقدونَ أنَّها تجلبُ إليهم الشرَّ وتُذهِبُ الخير، وفي مُقدّمة هذه الحيوانات الغراب، ((فقد كره العرب الغراب، ونفروا منه، وتشاءموا به، وليس في الأرض، بارحٌ، ولا نطيحٌ، ولا قعيدٌ، وأعضبٌ، ولا شيءَ ممَّا يتشاءمونَ به، إلا والغرابُ عندهم أنكدُ منه، وأبشعُ خيارًا، وأشنعُ أخبارًا، لعلَّ ذلك راجعٌ إلى لونِهِ، وإلى عملِهِ، وإلى اسمِهِ))[٩]، وتشاءمَ بعض الشعراء من الغراب؛ لأنَّهم يعتقدونَ أنَّهُ يُنذرُ بفراقِ الأحباب، كيف لا، واشتُقَّتْ من اسمِهِ، الغربةُ، والاغترابُ[١٠]، في حين

(١) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢ .

(٢) التفسير النفسي للأدب، د.عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨١م: ٩٠ .

(٣) ديوان امرئ القيس: ١١٧ .

(٤) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جياووك، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م: ١٨٧ . المكفهر: السحاب المتوالي المتراكب، شيب: فيها سواد وبياض، المشرفية: سيوف تنسب إلى قرى اسمها مشارف دمشق في أرض العرب، الدخدار: الثوب المصون أعجمي معرب أصلها تخت دار، يلالئن: يحركن .

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٣٧ .

(٦) ديوان شعر المثقب العبدي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م: ٢١٢- ٢١٣ .

(٧) كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربة الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هبود، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ٥/ ٢٣٩ .

(٨) ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٠م: ٤٨ .

(٩) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، د.ت: ١٢٠ .

(١٠) ينظر: كتاب الحيوان: ٤٤٣ .

رأى أحدُ الباحثين سببَ تطيُّرِ الناس من الغراب، والبوم؛ لأنَّهُم ((قرنوا الفراقَ والموتَ بالغرابِ، والبوم، نتيجةً لما تتَّسمُ به هذه الحيوانات من أشكالٍ مُخيفة، وما تبعثُهُ من أصواتٍ قبيحةٍ، تُثيرُ الشؤمَ في نفس الإنسان، علاوة على ارتيادِها الأماكنَ المهجورةَ، التي تبعثُ على الخوف، والفزع، والرهبةَ، كلُّ هذه الأسباب، جعلت النفوسَ، تنفرُ منها، وتقرنها بالشؤمِ، والشرّ، وترى فيها رمزًا للفراقِ والموت))(١).

وهكذا اقترنَ الشرُّ برؤيةِ الغراب، ممَّا جعل ذلك الشاعرَ الزِبعرى يُخاطب الغرابَ، ويقرنه بالبين، ويجدُ في نعيقِهِ نذير شؤم، غيرَ أنَّ الشاعرَ يُحاولُ أن يُخفِّفَ من وقع ذلك على نفسه، بعد أن يجدَ مخرجًا لذلك، بأنَّ الخيرَ والشرَّ لكلٍّ منهما وقتٌ وينقضي، وعلى الإنسان أن يدركَ هذه الحقيقة، وأن يُهيئَ نفسَهُ لذلك، فقال:

يا غرابَ البين أسمعتَ فقُلْ ... إنّما تنطقُ شيئًا قد فَعِلْ

إنَّ للخيرِ وللشرِّ مدىً ... وكلا ذينيك وقتٌ وأجلْ

كلُّ بؤسٍ ونعيمٍ زائلٌ ... وبناتُ الدهر يلعبنَ بكُلْ(٢)

ويُرجِعُ بعضُ الباحثين، خوفَ الإنسان الجاهلي، من الغراب، ونعته بغراب البين؛ ((ذلك لأنَّهُ ينتمي أصلاً إلى عالم السحر، لقد استُخدِمَ في عالم الكهانة...كما ظلَّ له باستمرار، ارتباطٌ بعالم السحر، في النسيب، كما اعتقد. وتطوَّرَ مفهومُهُ مؤخَّرًا بالطبع، فأصبح مُجرَّد رمزٍ لليأس))(٣).

ويمكنُ أن نلمسَ مشاعرَ الخوف، والشؤمِ أكثر وضوحًا في شعر النابغة الذبياني، وهو الذي رأى في البوارحِ، والغراب، نذيرَي شومٍ، برؤيتهما يقع الفراقُ بينه وبين الأحبَّة؛ لأنَّهما لا يسوقان إلا مثل هذه الأخبار الحزينة، فقال:

زَعَمَ الغرابُ بأنَّ رِحْلَتَنَا غَداً ... وبذاكَ خَبَّرَنَا الغُرابُ الأسوَدُ

أزف الترحُّلُ غيرَ أنَّ ركابَنَا ... لمَّا تَزلْ برحالِها وكأنْ قَدِ

لا مَرحباً بغَدٍ، ولا أهلاً بِهِ ... إنْ كانَ تَفريقُ الأحبَّةِ في غَدِ(٤)

وذهبُ الشاعرُ عنترة إلى ما ذهبَ إليه النابغةُ، فرأى في الغراب وصوته، رمزًا للفراق بينه وبين حبيبته، وعبَّرَ عن خوفه منه، بأن رسمَ له صورةً تبعثُ الاشمئزاز، وكذلك عمل على منعه أن يُفرِّخَ، ويتكاثرَ، حتى يبقى وحيدًا يندُبُ حظَّهُ العاثرَ، كما فعل بالشاعر، فتركه وحيدًا يتلوَّى تحت أوجاع الفراق والسهر، فقال:

ظَعَنَ الذين فِراقَهُمْ أتَوقَّعُ ... وجرى بِبَينِهُمُ الغُرابُ الأَبْقَعُ

خَرقُ الجَناح كأَنَّ لَحييْ رأسهِ ... جَلَمَانُ بالأَخْبارِ هَشٌّ مُولَعُ

فَزَجرتهُ ألاّ يُفرِّخَ عُشَّهُ ... أبداً ويُصْبحَ واحِداً يَتَفَجَّعُ

إنَّ الذينَ نَعَبْتَ لي بِفِراقِهِمْ ... قد أسْهرُوا لَيْلي التّمامَ فأَوْجعوا(٥)

واتَّخذ المُرقِّشُ الأكبرُ من صوت البوم، رمزًا للشرّ، ومبعثًا للتشاؤمِ، بعدما سمع صوت البوم يتردَّدُ في الأطلال الدوارس، التي خلت من أهلها، فوجدَ في هذه الديار منزلاً، ضاق به ذرعًا، ولم يستطع المبيتَ فيه؛ لِشِدَّةِ خوفِهِ، وروعه، وجاء بِصُوَرٍ جميلةٍ، صوَّرَ فيها نفسَهُ، وقد غلبت عليه هواجسُ الخوف، فتركتْهُ صامتًا، باهتًا، لا يدري ما يفعلُ، يتصوَّره الناظرُ إليه كأنَّهُ آنسٌ في المكان، مستمتعٌ به، فقال:

أَمِنْ آلِ أَسماءِ الطّلُولُ الدَّوارِسُ ... يُخَطِّطُ فيها الطّيْرُ، قَفْرٌ بَسابِسُ

ذَكَرْتُ بها أَسماءِ لو أَنْ وَلْيَها ... قَرِيبٌ ولكنْ حَبَسَتْنِي الحَوابِسُ

إلى أن يقول:

وتَسْمعُ تَزْقاءً منَ البومِ حَولَنا ... كما ضُربتْ بعدَ الهُدُوءِ النّواقِسُ(٦)

الشبابُ والمشيب

عَنِي الشاعرُ الجاهليُّ بثنائيَّة الشباب، والمشيب، وعبَّرَ من خلالها عن صراعه مع الزمن، وعمَّا يعتري نفسَهُ من مشاعر القلق، والنكوص، وهو يرى الشباب يذهب بسرعة، وتنقضي معهُ أجملُ سنين العمر، بما تحملُهُ من ذكرياتٍ جميلة، وتحُلُّ أيام المشيب، وما يقترنُ بها من ذبول الحياة، وأفولها، وإنَّ مثل هذه المشاعر تترُكُ في

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت: ٣٢٠ .

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م: ٣/ ١٤٣ .

(٣) جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، ريناتا ياكوبي نموذجًا، د.عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط١، د.ت: ١٤٦ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩ .

(٥) أشعار الشعراء الستة الجاهليين: ٢/ ١٤٣ .

(٦) ديوان المرقشين، تحقيق: كارين صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٥٥ .

نفسِ الشاعر لوعةً، وحُزنًا، ومنهم زهيرُ بنُ أبي سُلمى، وهو يُعبّرُ عن الخيبة التي ألمَّت به حين حلَّ به المشيب، ورحلَ عنه الشبابُ، وحُرِمَ من ملذّاتِهِ، وقد عبَّرَ عن ذلك، بكناياتٍ، واستعاراتٍ، وتشبيهاتٍ؛ لأنَّ هذه الأساليب البلاغيَّة هي الكفيلةُ في ((إظهار ما يجولُ في نفس الإنسان، من عواطفَ وإحساسات، وخيالاتٍ وغيرها))[1]، فقال زهير بن أبي سلمى:

صَحا القَلْبُ عن سلمى وأقصرَ باطِلُهْ ... وَعُرّيَ أفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ
وأقصَرَ عَمّا تَعلَمينَ وسُدّدَتْ ... عليّ سوَى قصْدِ السّبيلِ مَعادِلُهْ
وقالَ العَذارَى: إنّما أنتَ عَمُّنا ... وكانَ الشّبابُ كالخَليطِ نُزَايِلُهْ
فأصْبَحْنَ ما يَعرِفْنَ إلاّ خَليقَتي ... وإلاّ سَوادَ الرّأسِ والشّيبُ شامِلُهْ[2]

وهكذا أصيبَ زهيرٌ بما يُشعِرُهُ بأنَّهُ أصبحَ هامشيًّا في هذه الحياة، وليس له سوى انتظار الموت، بعدما هجرته النساء، ولم يعُدْنَ يكترثنَ به، فحُرِمَ من واحدةٍ من أهمِّ المُتع في الحياة، وقد عبَّرَ عديُّ بنُ زيد، عن المشاعر نفسها، نحو الشيب، ولكن بأسلوبٍ آخر؛ إذ رأى في الشيب ضيفًا بغيضًا، ثقيلَ الظلِّ، يُعكِّرُ حياةَ الإنسانِ، ويُذهِبُ كلَّ ما فيها من لذّةٍ ونعيم، ليقلبها إلى همومٍ وآلام، وإنَّ هذا الشيب واقعٌ، ولا مَفَرَّ منه، فقال:

نزلَ المشيبُ بوفدِهِ لا مَرْحبًا ... ورأى الشَّبابُ مكانَهُ فتجنّبا
ضَيْفٌ بَغيضٌ لا أرى لي عُصْرَةً ... منه هربتُ فلم أجدْ لِيَ مَهْرَبا
بُدِّلتُ بالعيشِ اللّذيذِ ونِعْمَةِ الـ ... ـعُمْرَيْنِ هَمًّا شاهِدًا، ومُغَيَّبا[3]

وهذه الأبيات تُذكِّرُنا بما قاله الشاعر عبد الرحمن شكري، حين وقف أمام المقبرة، ليُسجّلَ خواطرَهُ، في تلك الليلة المُقمرة؛ فقد رأى ضوءَ القمر يسطعُ على القبور، فبدى له هذا الضوء، كضوء البرق، الذي يبعثُ الرعبَ والخوف في نفسِ الإنسانِ، أو كبياضِ الشيب حين يظهر على الذوائب، فيبعثُ الخوف في الإنسان؛ لأنَّهُ يُذكِّرُهُ بالموت، فهنا أرادَ أن يقولَ أنَّ ضوءَ القمر جميلٌ، ولكنَّهُ حين يسطعُ على القبور، يبعث الحزن والخوف، وصحيحٌ أنَّهُ ضوءٌ ونورٌ، وبياضٌ، ولكنْ ليس كلُّ شيءٍ أبيضَ تعشقُهُ النفسُ، يبعثُ السرور، فالبرقُ أبيضُ، لكنَّهُ يخطف الأبصار، ويبعثُ الرعب، والشيب أبيض، غير أنَّهُ ثقيلٌ على النفس، ويُفزِعُ الإنسانَ؛ لأنَّهُ رمزٌ للموت، فقال عبد الرحمن شكري:

إنّي رأيتُ بياض ضوئك موهنًا ... فوق القبورِ كعارضٍ يتهلّلُ
ففزعتُ من ذاك البياضِ كأنّهُ ... لونُ المشيبِ على الذوائبِ يثقلُ[4]

ونلمسُ مشاعرَ من نوعٍ آخرَ يُظهِرُها الشاعر الأعشى قلقًا يائسًا من حياتِهِ، ثمَّ مستسلمًا لما تُقرِّرُهُ الأقدار بحقِّهِ، بعدما وجد نفسه عاجزًا عن مواجهة قدَرِهِ، وغيرَ قادرٍ على إصلاح ما أفسدَهُ الدهر، فقد وجد نفسَهُ لعبةً بيد القدر يُسيِّرُها كما شاء من الشباب إلى المشيب، ومِنَ الغنى إلى الفقر، فقال:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيناكَ لَيلَةَ أرْمَدَا ... وَعَادَكَ مَا عَادَ السّلِيمَ المُسَهَّدَا
وَمَا ذاكَ مِنْ عِشْقِ النّسَاءِ وَإنّمَا ... تَناسَيتَ قَبلَ اليَوْمِ خُلّةَ مَهدَدَا
وَلكِنْ أرى الدّهرَ الذي هوَ خاتِرٌ ... إذا أصْلَحَتْ كَفّايَ عَادَ فأفْسَدَا
شَبَابٌ، وَشَيْبٌ، وَافتِقارٌ، وَثَرْوَةٌ ... فَلِلّهِ هَذَا الدّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا[5]

وعلى العكس من هذه القصيدة، نجدُ الأعشى ((يرسِمُ ملامحَ مواجهةِ مأساةِ الشيب، من خلال ضربٍ من التمرُّدِ، الرافضِ للاستسلام للواقع المفروض، والمُتشبّثِ بما كان من عنفوان الشباب وقوَّتِهِ))[6]، فقال:

وأرَى الغَوَانِيَ حِينَ شِبْتُ هَجَرْنَنِي ... أنْ لا أكُونَ لَهُنّ مِثْلِيَ أمْرَدَا
إنّ الغَوَانيَ لا يُوَاصِلْنَ امْرِأً ... فَقَدَ الشّبَابَ وَقَدْ يَصِلْنَ الأمْرَدَا
بَلْ لَيْتَ شِعرِي هَلْ أعودَنْ ناشِئًا ... مِثْلِي زُمَينَ أحُلّ بُرْقَةَ أنْقَدَا[7]

ونجدُ مثلَ هذه المشاعر، التي ترى في الشيب شبحًا يُلاحقُ الإنسانَ، عند علقمة الفحل، وذلك في قصيدته الشهيرة:

---

(1) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣م: ١١٩ .

(2) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ١٠١– ١٠٢ .

(3) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١١٣ . العصرة: المنجاة والملجأ .

(4) ديوان لآلئ الأفكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م: ٢/ ١٤٥ .

(5) ديوان الأعشى الكبير: ١٣٥ .

(6) دراساتٌ نقديَّةٌ في الأدب العرب: ٦٣ .

(7) ديوان الأعشى الكبير: ٢٢٧ .

طَحَــا بــكَ قَلْــبٌ فــي الحِســان طــروبُ ... بُعيْــد الشَّــبابِ عصــرَ حــانَ مشــيبُ[1]

وصوَّرَ الشاعرُ النمرُ بنُ تولب ما يفعلُهُ المشيبُ بجسمِ الإنسان بحيث أنَّ الشاعر أنكرَ نفسَهُ، حين رأى ما طرأ على جسمِهِ من هُزالٍ وضعفٍ، فقال:

لَعَمْــرِي لقــد أَنْكَــرْتُ نَفْســي ورابَنــي ... مــعَ الشّــيْبِ أبــدالي التــي أَتَبَــدَّلُ

فَضُــولٌ أَرَاهَــا فــي أَدِيمــيَ بَعْــدمَا ... يَكُــونُ كَفَــافُ اللّحْــمِ، أَو هُــوَ أَفْضَــلُ[2]

وعاتبَ النابغةُ الذبيانيُّ المشيبَ، وهو يُجهِزُ على أيَّام الصبا، ويُحيلُ أيَّام الشاعر أرضًا يبابًا لا معنى لها، فقال:

علــى حــينَ عاتبــتُ المَشــيبَ علــى الصِّــبا ... وقلــتُ: أَلَمّــا أصْــحُ والشّــيبُ وازعُ؟[3]

وخيرُ من عبَّرَ عن مشاعره نحو المشيب، هو الشاعر عديُّ بنُ زيد، وهو يرى المشيبَ علامةً من علامات أفول الحياة، ووجد أيام الشباب الجميلة تُطوى بسرعة، فيعقبها المشيبُ، ممَّا تـركَ ذلك لوعـةً فـي نفسِ الشـاعر، وذلك بقوله:

وأرى ســوادَ الــرأسِ يَنقُصُــهُ البِلــى ... والشــيبُ عــنْ طــولِ الحيــاةِ يزيــدُ

وَلَقَــد بَكيــتُ علــى الشــبابِ لــو انّــهُ ... كــان البكــاءُ بــه علــيَّ يعــودُ

ليس الشبابُ – وإنْ جَزِعْتَ- براجعٍ ... أَبَــدًا، وَلَــيْسَ لَــهُ عَلَيْــكَ مُعيــدُ[4]

الرومانسيةُ وتجلِّياتُها الفنيّة

الموضوعات:

في هذا الضرب من الموضـوعات، نـأى الشـاعرُ الجـاهليُّ، عـن تلـك الواقعيَّـةِ الصـارخةِ فـي شـعرِهِ؛ إذ انصبَّت اهتماماتُهُ، على تناولِ موضوعاتٍ، تُعنى بتصوير المشـاعرِ، والعواطـفِ، ومـا تضـطربُ فيـه نفسُـهُ مـن مشاعر القلق، والخوف، وما جاش فيها من أحزانٍ، وتشاؤمٍ، ويأسٍ، وهو يقطعُ رحلة الحياة المُضنية، بما فيها من وحشةٍ، وغُربةٍ، وما قاساهُ فيها، من متاعبَ ومُعاناة، فقد تأمَّلَ الشاعرُ الجـاهليُّ هـذه الحيـاة، وحـاولَ أن يسـتقريَ ماهيَّتها، ويعرفُ أسرارَها، غير أنَّهُ نكصَ على عقبيه، ورجع يائسًا، مستسلمًا، لقَدَرِهِ، بعدما ظلَّت هذه الحياة يلفُّها الغموض، ولا يعرفُ من حقيقتها، إلا النزرَ القليل.تناولَ الشاعرُ الجاهليُّ موضوعاتِ النفس الإنسـانيَّةِ، والحيـاةِ، والطبيعة، من خلال بعض الثنائيَّـات، مثـل ثنائيَّـةِ الحيـاة، والمـوت، التـي شـغلت رقعـةً واسـعةً مـن شـعر هـؤلاءِ الشعراء، الذين حاولوا التعمُّقَ في موضوع الحياة والموت، وأن يُدركوا أسرارهما، لكنَّ تأمُّلاتهم لـم تكـنْ عميقـةً، بل كانت رؤىً بسيطةً، إذ أرجعوا كثيرًا من هذه الظواهر، إلى أسبابٍ غيرِ حقيقيَّة، فقد صـبُّوا جـام غضـبِهِم علـى الدهر، والأيَّام والشهور، والقدر، ورأوا فيها سببًا لِمُعاناتِهِم، وهي التي جرَّعتهم كلَّ المصائب في حياتِهِم، في حينَ أنَّ الدهرَ أو الزمنَ، وعاءٌ تقعُ فيه الأحداث، فهو لا يحزنُ، ولا يغدرُ، ولا يُميتُ، وإنَّما تقعُ فيـه أحـداثٌ هـي سـببٌ لذلك، وإنَّ لهذه الأحداث أسبابَها الحقيقيَّةَ التي يجـبُ أن تُـدرَكَ.أمَّا الثنائيَّـةُ الثانيـةُ التـي اسـتأثرتْ باهتمـام الشـاعرِ الجاهليِّ، فهي ثُنائيَّةُ الخير والشر، إذ وجدَ في اصطراع الخير والشرِ في حياتِهِ، ما يُعكِّرُ صفوَها، لذلك عملَ على التأمُّلِ في هذه الظاهرة، وحاول معرفة دواعي الخير والشر، غيـر أنَّـهُ وقـف عنـد حـدودها الخارجيَّـةِ، ولـم يـأتِ بشيءٍ جديد، فقد سلَّمَ بأنَّ الخيرَ والشرَّ، يصطرعانِ في حياةِ الإنسـانِ، ويعمـلانِ علـى قلقِـهِ، وعـدمِ اسـتقرارِهِ فـي الحياةِ، وما على الإنسانِ إلا أن يرضى بما تُقرِّرُهُ له الأقدار، يُزاد على ذلك ما عُرِفَ بأنَّ الخيرَ والشرَّ، لا يبقيـانِ على حالةٍ واحدة، ملازمةٍ للإنسان، بل يتعاقبانِ عليه في حياتِهِ، وهما يُعدَّانِ سببًا في اضطرابه في الحياة.

وحاولَ بعضُ الشعراء، أن يخلعوا شيئًا من مشاعرِهم على الطبيعة، وأن يجدوا فـي بعـض مظاهرِهـا مـا يدُلُّ على ما تزدحمُ به نفوسُهُم، من مشاعرَ وعواطف، فكانت عناصرُ الطبيعةِ رموزًا تُعبِّرُ عمَّا يخطُرُ في أذهانِهِم من مشاعر وعواطف.وصاغَ بعضُ الشعراء، تأمُّلاتهم في الحياة والموت، ومـا بعـد المـوت، بأسـلوبٍ ذي نزعـةٍ قصصيَّةٍ، ساقوا فيها خُلاصةَ ما توصَّلوا إليه في أثناء رحلة الحياة، يُضاف على ما أمدَّتهُم فيـه مُعتقـداتُهم الدينيـة، والثقافيَّةَ التي كانت سائدةً في عصرهم، بعدما أضفوا عليها شيئًا من خيالِهِم؛ لأنَّ مثلَ هذه الموضوعات التي تُعنى بتصوير الأحاسيس، والمشاعر، موضوعاتٌ رومانسيَّة، دار حولها الشعرُ الرومانسيُّ الحديث، وهذا ما يؤكِّدُ أنَّ مثلَ هذه الموضوعات، كان لها في الشعر الجاهليِّ ما يشبهها إلى حدٍّ مـا، ونقـرُّ أنَّ الشـاعرَ الجـاهليَّ تنـاولَ هـذه الموضوعات بصورةٍ تفتقرُ إلى العمقِ، الذي رأيناهُ عند شعراء الرومانسيَّة في العصر الحديث، لكنَّها تُعدُّ بـداياتٍ رائدةً في هذا الميدان.

اللغة:

وأبرزُ ما يتَّسمُ به هذا الشعر الذي ينحو منحى الرومانسيَّةِ، هو لُغَتُهُ التي تميلُ نحو الألفاظ المعنويَّة، التي تدلُّ على معاني العواطف، والمشاعر، والهواجس، علاوة على أنَّهم جاءوا بألفاظٍ تدُلُّ علـى طبيعـة الموضـوعات

---

(١) ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقال، درية الخطيب، حلب: ٣٣ .

(٢) ديوان النمر بن تولب العكيلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م: ٩٨ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني: ٣٢ .

(٤) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٢٣ .

التي عالجها هؤلاء الشعراء، فعندما تدورُ موضوعاتهم حول الطبيعة، فإنَّهم يأتونَ بألفاظِ الطبيعة، لكنَّهم يختلفونَ عن شعراء الوصف التقليدي، في كونِ هذه الكلمات، لا تقفُ عند حدود معناها الذي وُضِعتْ له في معاجمِ اللغة، بل إنَّها تكتسبُ معانيَ جديدةً، من خلال السياق، الذي وُظِّفتْ فيه، وهذه المعاني تدُلُّ على ما تختزنُهُ نفسُ الشاعر، من مشاعرَ وعواطفَ أرادَ أن يبوحَ بها، وهذه تكادُ أن تكونَ سمةً للمعجم الرومانسي، غير أنَّ الكلمات لم تكن رومانسيَّةً بمُفردِها، وإنَّما في الصياغة، حيثُ تتحوَّلُ هذه الألفاظ إلى ألفاظٍ موحيةٍ، ومُحلِّقةٍ في أجواء الخيال، قادرةٍ على تصوير المشاعر والعواطف[1]، وقد انتفعَ الشاعرُ الجاهليُّ، من كمٍّ هائلٍ من ألفاظ الطبيعة، مثل الليل، والنجم، والقمر، والشهاب، والوميض، والبرق، والسنا، والريح، والصبا، والدبور، والبحر، والموج، والماء، والورق، والغصن، والغراب، والبوارح، والبوم، والثرى، والأرض. هذه الألفاظ خلع عليها الشاعرُ الرومانسيُّ شيئًا من مشاعرِهِ، فوظَّفها لِتُعبِّرَ عن مشاعر الحزن، أو الكآبة، أو اليأس، أو الخوف، فضلاً على أنَّها رموزٌ تُعبِّرُ عن الموت أو الفناء، أو الخير أو الشر، ويُمكننا أن نلمسَ ذلك في كثيرٍ من أشعارِهم، ومنها قولُ كعب الذي رأى مأساة الإنسانِ تتمثَّلُ في الغصنِ والورق الذي يراهُ في عنفوانِ حيويَّتِهِ نضرًا، ثمَّ بعد ذلك يسيرُ نحو الذبول والاصفرار، والفناء، وهو في هذه الحالة يشبهُ الإنسان الذي هو في عنفوان الشباب، لكن مع مرّ الأيَّام والسنين يسيرُ نحو الكهولة والفناء، فقال:

والمرءُ والمالُ يُنمى ثمَّ يُذهِبُهُ ... مرُّ الدهورِ ويفنيه، فينسحقُ

كالغصنِ بينا تراهُ ناعمًا هَدِبًا ... إذ هاجَ وانحتَّ عن أفنانِهِ الورَقُ[2]

وشاع في شعرهم الألفاظُ التي تغنَّى بها هؤلاء الشعراء بعذاباتهم، مثل: يَسلِبُني، ويشهدني، ويتفجَّع، ويرميني، وقاتلي، وموحشة، وحزين، وغدور، وخؤون، والموت، وختور، وكئيب، مثل قول عديّ بن زيد:

فإنْ أمسيتُ مكتئبًا حزينًا ... كثيرَ الهمِّ يُشهِدُني الحذارُ[3]

وفي ضوءِ ما تقدَّمَ، يبدو لنا أنَّ لغة الشعر شديدة الارتباط، بموقف الشاعر، من الحياة، ورؤيته لها، ويكثُرُ في شعرِ هؤلاء الألفاظُ المُشعَّة، وهي ((التي تُثيرُ إلى جانب معناها المعروفِ، معانيَ جانبيَّةً يكونُ لها وقعٌ كبيرٌ، في نفس القارئ، منفردةً أو مُتآلفة مع الألفاظ الأخرى))[4]، ونجدُ لمثل هذه الألفاظ المُتآلفة، صُوَرًا كثيرةً في شعر هؤلاء، وأنَّها توقظُ في ذهنِ قارئها وسامعها، كثيرًا من المشاعرِ، والأخيلةِ، ومن هذه التعبيرات المُشعَّة: (لأمرٍ غيبٍ، وضيف بغيض، وليلة أرمدا، والسليم المُسهَّدا، وأرعى النجوم، وأرخى سُدوله، وبنات الدهر، وأخنع الدهر بهم، والدهر غول، ويُسهدني الحذارُ، ولياليها قصار،...إلخ).

الصورة الفنّية:

أبدعَ عددٌ من الشعراء في العصر الجاهلي صُوَرًا شعريَّةً تشبَهُ إلى حدٍّ ما تلك الصُوَر التي دعا إليها شعراء الرومانسيَّة في العصر الحديث، إذ اشترطوا فيها أن تنقُلَ مشاعرَ وأحاسيسَ، وأن تترُكَ أثرًا في نفوسِ مُتلقِّيها، وأن توقظَ في نفوسهم عواطفَ شتَّى، وهذا ما نادى به جماعةُ الديوان، الذين قالوا في التشبيه: ((وما ابتُدِعَ التشبيه لرسمِ الأشكال والألوان، فإنَّ الناسَ جميعًا يرونَ الأشكالَ والألوانَ محسوسةً لذاتها، كما تراها، وإنَّما ابتُدِعَ لنقل الشعور، واتِّساع مداه، ونفاذِهِ إلى صميم الأشياء، يمتاز الشاعرُ على سواه))[5]، ويمكنُ أن نلمسَ ما قلناه في شعر عدي بن زيد، وهو يُشبِّهُ حياة الإنسان، كالشهاب يتوهَّجُ، ثمَّ ينطفئ، فهذا التشبيهُ يُثيرُ في نفسِ قارئهِ مشاعر الخوف، من الحياة، وما تؤدي إليه من مصيرٍ مؤلِمٍ، كذلك تبعثُ في نفس الإنسان روح الشفقة على حياتِهِ التي يُجهِزُ عليها الموت، ويحرمها من لذَّة الحياة، ويجعلها نسيًا منسيًّا، وهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يكونُ وجهُ الشبه منتزعًا من أشياء متعدِّدة[6]، فقد شبَّه حياة الإنسان بلمعان الشهاب، فقال:

بأنَّ المرءَ لم يُخلَقْ حديدًا ... ولا هَضْبًا توقّاهُ الوبارُ

ولكنْ كالشهاب فثمَّ يخبو ... وحادي الموت عنه ما يحارُ[7]

ويوقظُ تشبيهُ بشر بن أبي خازم، في نفس المتلقي، مشاعر الحزن، وهو يُشبِّهُ الشباب، الذي هو أجمل سنين العمر، عند الإنسان بسحاب الريح، ووجه الشبه هنا هو الذهاب وعدم الارتجاع، والتشبيهُ يُسمِّيه البلاغيُّونَ تشبيهًا مؤكَّدًا مُفصَّلاً حُذِفت فيه الأداةُ، وذُكِرَ وجهُ الشبه[8]:

قليلاً والشبابُ سحابُ ريحٍ ... إذا ولّى، فليسَ له ارتجاعُ[9]

---

(1) دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د.محسن اطيمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م: ١٨ .

(2) ديوان كعب بن زهير رواية السُكَّري: ١٦٦ .

(3) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٢ .

(4) النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م: ٢٣١ .

(5) الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفيه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣: ٢١ .

(6) االبلاغة فنونها وأفنانها: ٥٨ .

(7) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٣ .

(8) البلاغة فنونها وأفنانها: ٥٨ .

(9) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢ .

وهذا التشبيهُ يُثيرُ التأمُّلَ، ويترُكُ مشاعرَ زاخرةً بالألم واللوعة تُجسِّدُ خيبة أمل الإنسان في هذه الحياة.

ويأتي امرؤ القيس، بتشبيهٍ زاخرٍ بالمشاعر المرعبة، مؤكَّدٍ مفصَّل، فقد شبَّهَ فيه الدهر غولاً ختورًا، ووجهُ الشبه بينهما أنَّ كليهما يلتهمان الرجال، وحُذِفت منه الأداةُ، وذُكِرَ فيه وجه الشبه، يُزاد على أنَّهُ جاءَ بمجازٍ عقليٍّ نسبَ إلى الدهرِ أفعالاً لم يقم بها؛ لأنَّ الدهرَ زمنٌ، والزمنُ هو الوعاء، الذي تقعُ فيه الأحداث، فهو لم يلتهم الرجالَ، بل أنَّ أحداثًا تقعُ فيه هي التي تقتل البشر، ونُسِبت إليه؛ لأنَّها وقعت فيه، فقال:

ألـــمْ يحْزُنْـــكَ أنَّ الـــدهرَ غُـــولٌ ... ختـــورُ العهـــدِ يلـــتهمُ الرجـــالا[١]

ونجد هذه الحقيقة التي أدركها الإنسان، وهي تعاقب الأيام عليه والسنين، وهو يعيش في هذه الحياة، تسوقه نحو مصيره المحزن، الذي كُتِبَ عليه، فكان لها أثرٌ كبير على نفسه، لذلك نجدُ أنَّ كثيرًا من الشعراء، عبَّروا عن مشاعرهم بصورٍ مُتعدِّدةٍ، تصبُّ جميعًا في الخشية من الزمن، ومنهم حاتم الطائي الذي شبَّهَ الأيَّامَ والشهور والسنين التي يقضيها الإنسان في حياته بالمطايا التي تقلُّ الإنسان نحو الهرم والشيخوخة والموت، فقال:

ومـــا هـــي إلا ليلـــةٌ، ثـــمَّ يومُهـــا ... وحـــولٌ إلـــى حـــولٍ، وشـــهرٌ إلـــى شـــهرِ

مطايَـــا يُقـــرِّبنَ الصـــحيحَ إلـــى البِلـــى ... ويُـــدنينَ أشـــلاءَ الهُمـــامِ مِـــنَ القبْـــرِ[٢]

وإنَّ مثل هذا التشبيه يبعث في نفس المُتلقِّي، الخوفَ، والرعبَ، وهو يُدرِكُ أنَّ الأيَّامَ تقودُهُ نحو حتفِهِ.

ويسوقُ لنا كعبُ بنُ زهير، تشبيهًا تمثيليًّا، يُعبِّرُ من خلالِهِ عن مشاعرَ حزينةٍ، وهو يرى حال المرءِ، تشبَهُ الغصنَ، الذي يبدأُ غضًّا، ناعمًا، يزهو بطراوتِهِ، وخُضرتِهِ، غيرَ أنَّ مرورَ الأيَّام، والأعوام، تُذهِبُ هذهِ النضارةَ، وتسيرُ به، نحو الذبول، والفناء، وإنَّ هذا الضربَ من التشبيه يترُكُ في نفسِ المُتلقِّي، مشاعرَ الحزنِ والتشاؤمِ واليأس، وخيبة الأمل من هذه الحياة، فقال:

والمـــرءُ والمـــالُ يُنمـــى ثـــمَّ يُذهِبُـــهُ ... مـــرُّ الـــدهورِ ويفنيـــه، فينســـحقُ

كالغصـــنِ بينـــا تـــراهُ ناعمًـــا هَـــدِبًا ... إذ هـــاجَ وانحـــتَّ عـــن أفنانِـــهِ الـــورَقُ[٣]

ورسمَ طرفةُ بنُ العبد، صورةً مُخيفةً، للموت، فقد شبَّهَ قدر الموت، بالحبل الذي شُدَّ أحدُ طرفيه، على رقبة الإنسان، والآخرُ تُرِكَ بيد الأقدار، بحيث أنَّها متى شاءت تجذبُ الحبلَ لتسوقه إلى حتفِهِ، فقال:

لعمـــرُكَ أنَّ المـــوتَ مـــا أخطـــأ الفتـــى ... لَكَـــالطِولِ المُرخـــى وثنيـــاهُ باليـــدِ

متـــى مـــا يشـــأ يومًـــا يقُـــدْهُ لِحَتفِـــهِ ... ومـــنْ يـــكُ فـــي حبـــلِ المنيَّـــةِ ينْقَـــدِ[٤]

وصوَّرَ النابغةُ الذبيانيُّ، خوفَهُ من النعمان بنِ المُنذرِ، بهذه الصورةِ التشبيهيَّةِ الجميلة، فقد صوَّرَ سُلطةَ النعمانِ وسطوتَهُ، بالليلِ الذي يُطبِقُ على الجميع، ولا مفرَّ منه، وإن اعتقدَ الخائفُ منه، بأنَّ الأرضَ واسعةٌ ويمكنُ أن يكونَ بأرجائها البعيدة، بمنأى من عقاب النعمان، إلا أنَّ ذلك لم يُسعِفْهُ، فإنَّهُ يُدرِكُهُ، كما يُدرِكُ الليلُ الجميع، فهو في قبضتِهِ، مهما حاول ذلك، فقال:

فإنَّـــكَ كالليـــلِ الـــذي هـــو مُـــدركي ... وإنْ خِلـــتُ أنَّ المُنتـــأى عنـــكَ واســـعُ[٥]

فهذه الصورةُ التشبيهيَّةُ، تبعثُ التأمُّلَ، وتترُكُ في نفسِ قارئها، ((بما يحملُهُ الليلُ من دلالات الغموض، والرهبة، وسرعة الانتشار، واستحالة أن تبقى بقعةٌ من الأرض، دون أن يصلَ إليها الليلُ، وهذا يعني أنَّ التشبيهَ يخضعُ كغيرِهِ من الصور البلاغيَّةِ الأخرى إلى مقدرةِ الشاعر، على توظيفِهِ، بما يخدُمُ تجربته الشعريَّة))[٦].

ويُشبِّهُ عديُّ بنُ زيدٍ، ما آلت له حالُ بني الأصفر ملوك الروم، وكذلك ملوك الفرس، بعد العزِّ والجاه والسلطان، إلى ورقٍ جفَّ، ثمَّ بعثرته رياحُ الصبا والدبور، وهذا التشبيه نقلَ لنا خيبةَ الإنسان في هذه الحياة، وضياع آمالِهِ ومأساتِهِ، فقال:

ثـــمَّ أضـــحوا كـــأنَّهُمْ ورقٌ جـــَ ... ـــفَّ، فـــألوتْ بـــه الصَّـــبا والـــدَّبورُ[٧]

ونجدُ مثلَ هذه التشبيهات، التي تترُكُ انطباعًا نفسيًّا، في شعرِ امرئ القيس، وهو يُفصِحُ عن حالته النفسيَّةِ، وهو يشبه البرقَ الذي يبرُقُ بين حينٍ وآخر، بمشي البعيرِ الذي يشكو من ألمٍ في إحدى أرجُلِهِ، ممَّا اضطرَّهُ إلى المشي على ثلاثِ قوائم، فيكونُ مشيُهُ بما يُشبِهُ الوثبَ، ثمَّ يستريحُ، ثمَّ يثبُ، والتشبيهُ هنا، يُعبِّرُ عن مُعاناةٍ نفسيَّةٍ، ويبدو ذلك في كلمة (أعنِّي) فالبرقُ يبعث الخوف والرعب في نفس الشاعر، فيقول:

أعِنِّـــي علـــى بـــرقٍ أراهُ ومـــيضِ ... يضـــيءُ حبيًّـــا فـــي شـــماريخ بـــيضِ

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٣٠٩ .

(٢) ديوان حاتم الطائي: ١١٠ .

(٣) ديوان كعب بن زهير: ١٦٦ .

(٤) ديوان طرفة بن العبد: ٣٤ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني: ٣٨.

(٦) الصورة الشعريَّة في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م: ٢٠ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٩٠ .

ويهـــدأ تـــاراتٍ ســـناهُ وتـــارةً ينـــوءُ كتعتـــاب الكســـير المهـــيضِ[1]

وتكثُرُ في هذا اللونِ من الشعر، الاستعارات، والكنايات؛ لأنَّ مثلَ هذه المشاعر، التي تُفْعَمُ بها نفوسُهُم، لا يمكنُ التعبيرُ عنها بصورةٍ مؤثِّرة، إلا من خلال الصور الشعريَّةِ الموحية، والمُحلِّقة في أجواء الخيال، فهي الكفيلةُ في نقل أدقّ المشاعر التي يحُسُّ بها الشاعر.

وأجملُ تلك الصور الاستعاريَّة، الصورةُ التي رسمها امرؤ القيس، لليل ليُعبِّرَ من خلالها عن همومِهِ وأحزانِهِ، فقد شبَّهَ الليلَ بالبعير، وحذف المُشبَّهَ به وتركَ لازمةً من لوازمه (التمطِّي بِصُلْبِه)، وهو يُعبِّرُ عن طول الليل، ((وأردف أعجازًا وناء بكلكلٍ عن ثقل الهموم على نفسه، وكيف أنَّها انتشرت، وامتدَّت في كلِّ زاويا نفسِهِ في اطمئنان وهدوء))[2]، فقال:

وليـلٍ كمـوجِ البحـر أرخـى سُـدُولَهُ عليَّ بـأنواعِ الهمـوم ليبتلـي

فقلـتُ لـه لمَّـا تمطّـى بِصُـلبِهِ وأردف أعجـازًا ونـاءَ بكلكـلِ

ألا أيُّهـا الليـلُ الطويـلُ ألا انجلـي بِصُـبحٍ، ومـا الإصـباحُ عنـك بأمثـلِ[3]

ويرسمُ لنا الشاعرُ قيس بنُ الخطيم، صورةً استعاريَّةً، تبعثُ انطباعًا حزينًا، في نفوسنا، وذلك في قوله:

ومـن يـكُ غـافلاً لـم يلـقَ بؤسًـا يـنِخْ يومًـا بسـاحتِهِ القضـاءُ[4]

فجعلَ القضاء والقدر، يبرك، ويجثُمُ بساحتِهِ، كما يبرك البعير، وهي استعارةٌ مكنيَّةٌ، إذ حُذِفَ المُشبَّهُ به، وهو البعير، وتُركَت لازمةٌ من لوازمِهِ[5]، وفيها ما يدلُّ على الخوف، فالموتُ ينُوخ ويجثُمُ على الناس، كما يجثُمُ البعيرُ بثقلِهِ، فيخنُقُ الأنفاس، علاوة على أنَّها تدعو الإنسانَ إلى أن لا يغفل، أو يغترّ بالحياة، وإنْ كانَ مُنعَّمًا، فإنَّ هذا النعيم لا يشفعُ له عن الموت.

ومن الاستعارات التي تُعنى بتصوير المشاعر، وتوقظُ مشاعر حزينةً في نفس مُتلقِّيها، قولُ زهيرِ بن أبي سُلمى:

صَـحا القَلـبُ عـن سـلمى وأقصـرَ باطِلُـهْ وَعُـرِّيَ أفـرَاسُ الصِّـبَا وَرَوَاحِلُـهْ[6]

استطاع زهيرٌ أن يستودعَ في نفوسِنا، شعورَهُ بالمرارة، وخيبة الأمل، وهو يصحو على واقعٍ جديد يجدُ نفسَهُ ممَّن لا تكترثُ به النساء، بعدما رمى به العمر من الشباب إلى المشيب، وقد عبَّرَ عن ذلك، باستعارةٍ جميلةٍ (وعُرِّيَ أفراسُ الصبا ورواحلُهْ)، والأفراسُ جمعُ فرسٍ؛ الحيوان المعروف الذي توضعُ عليه الأرحال، وهي جمعُ رحْل، والصبا والصبوات، ما يلهو به الإنسان من أيَّام شبابه...والإبداعُ في هذا المعنى الاستعاري في ضوء التركيب الشعري[7]، فقد جعل أفراس الصبا ورواحله تعرى، وفرسٌ عُرْيٌ ليس عليه سرجٌ، وهذا ما يُفقدُها زينتها التي تصبحُ الفرسُ جميلةً بارتدائها، وهي صورةٌ للشاعر، وهو يفقدُ زينته بفقد الشباب، ممَّا جعل سلمى أقصرت عن حُبِّهِ، أي كفَّت عن الحبِّ وأشواقِهِ، أو عدلت عن الهوى عندما ذهب الشباب، ورمت به الأيام في عصر الشيخوخة والهرم، ولم يعد كما كان محطَّ أنظار الفتيات الجميلات، ممَّا آلمه ذلك وآذاهُ كثيرًا.

وإنَّ هذا اللون من الاستعارات يهدُفُ إلى ((إظهار ما يجولُ في نفس الإنسان من عواطفَ، وإحساسات وخيالات وغيرها))[8]، إذ إنَّ الصورةَ الاستعاريَّةَ، كفيلةٌ بأن تنقُلَ أدقَّ تلك المشاعر، وهذا ما وجدناهُ في معظم هذه الاستعارات، ومنها ما قاله الشاعر لبيد بن ربيعة العامري:

لحـا الله هـذا الـدهرَ، إنِّـي رأيتُـهُ بصـيرًا بمـا سـاء ابـن آدم مولعـا[9]

فقد جعل الدهرَ يبصرُ، ويُدركُ ما يفعلُ، فقد شبَّهه بالإنسان، وحذف المُشبَّهَ به، وتركَ لازمةً من لوازمِهِ، وهي (الإبصار)، وجاء بمجازٍ عقليٍّ علاقته الزمانية، فقد نسب إلى الدهر ما لم يقم به، وهو الإساءة للإنسان، وبهذا أضفى حيويَّةً على الدهر بحيثُ جعله يتحكَّمُ في إيذاء الإنسان، وما على الإنسان أمام هذه القوَّة القاهرة، التي لا حول له نحوها، ولا قوَّةَ إلا أن يُعبِّرَ عن مشاعر الانكسار، واليأس. ومثلُهُ قولُ زهير بن أبي سُلمى يُعبِّرُ عن مرارته في هذه الحياة، باستعاراتٍ جميلة، فالدهرُ يقرعُ العظم، وهي استعارةٌ تنقلُ مشاعر الألم المُمض ممَّا يفعلُهُ الدهر، وهو يقتنصُ أقرباءَ الشاعر الواحد تلو الآخر، وكذلك مجازٌ عقليٌّ نسب للدهر ما لم يقم به، وهو أن يفجع الشاعرَ بموتِ أعزَّائِهِ، فقال:

---

(1) ديوان امرئ القيس: ٩٥ .

(2) التفسير النفسي للأدب: ٩٠ .

(3) ديوان امرئ القيس: ١١٧ .

(4) ديوان قيس بن الخطيم: ٧١ .

(5) البلاغة فنونها وأفنانها: ١٧٩ .

(6) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى: ١٠١ .

(7) ينظر: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١١٩ .

(8) المصدر نفسه: ١١٩ .

(9) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٣ .

يـــا دهـــرُ قـــد أكثـــرتَ فجعتنـــا بِسَـــراتِنا، وقرعـــتَ فـــي العظـــمِ[1]

وكثُرت الكناياتُ في شعرِهم؛ لأنَّها تتَّفقُ ومنهجَهم الذي يشترطُ في الخيال أن يُثيرَ التأمُّلَ، وينقل المشاعر، ويوقظُ العواطفَ، وإنَّ الكنايات من شأنِها أن تضطلع بهذه المُهمَّة، ((فللكنايةِ وظائفٌ وفوائدٌ لا تقومُ بها الاستعارة ولا التشبيه؛ لأنَّ لها نمطًا خاصًّا وموطنًا مختلفًا، فبدايتُها واضحة، ثمَّ تتصاعدُ في المعنى حتى تصبحُ عند المُتلقِّي العادي ألغازًا وأحاجي، وتستغلقُ رموزها ومعانيها إلى أن تُصبحَ ذات دلالاتٍ في الصفات، أو الموصوفين))[2]، وميزةُ الكناية هي ((أنَّنا نستطيعُ أن نُعبِّرَ بواسطتها عن كثيرٍ ممَّا يُتحاشى التصريحُ به...ألا ترى أنَّكَ بأسلوبِ الكناية يُمكنُكَ أن تشفي غُلَّةَ نفسِكَ))[3]، وقد تفنَّنَ بعضُ الشعراء الجاهليّين، في توظيف الكنايةِ للتعبير عن مشاعرِ الحزن، من خلال بعض المُفارقات في الحياة، وما ينجُمُ عنها من نهايةٍ مؤلِمةٍ، فهذا عديُّ بنُ زيد، من أجلِ أن يكونَ لكلامه وقعٌ مؤثِّرٌ، جعل الإنسانَ يُدركُ حقيقة ما يحيقُ به من مخاطرَ، وأن لا يغترَّ بالحياة مهما حنت عليه بقطوفها الدانية، وفي ذلك يقول: (يشربون الخمر بالماء الزلال)، ويريدُ به كنايةً عن الناس المُنعَّمين، الذين هم أيضًا سيطالهم الموتُ، ويعصفُ بهم، وبنعيمهم، وبهذا يترُكُ في نفس المُتلقِّي لوعةً وألمًا، فقال:

رُبَّ رَكْـــبٍ قـــد أنـــاخوا عنـــدنا يشـــربونَ الخمـــرَ بالمـــاءِ الـــزُّلالْ

عَمِـــروا دهـــرًا بِعَـــيْشٍ حَسَـــنٍ آمنـــي دَهْـــرَهُمُ غيـــرَ عِجـــالْ

ثـــمَّ أضـــحوا أخنـــعَ الـــدهرُ بهـــم وكـــذاكَ الـــدهرُ يـــودي بالجبـــالْ[4]

ويأتي امرؤ القيس، بكناياتٍ زاخرةٍ بالمشاعرِ الحزينةِ واليائسة، في قوله:

أَرجِّـــي مـــن صـــروف الـــدهرِ لينًـــا ولـــم تغفـــلْ عـــن الصُـــمِّ الهضـــابِ

ويُذكِّرُ هذا ما قاله الفيلسوف اليوناني (هرقليطس): ((أنت لا تنزل إلى النهر مرَّتين)) لأنَّ كلَّ شيءٍ في هذه الحياة، يطالُهُ التغيير، ويمسُّهُ الفناء، ولم يبقَ شيءٌ على حالِهِ، فمثلما يولد الإنسان ويشبُّ في هذه الحياة، ويُصبحُ في عنفوانها، غير أنَّه بعد ذلك يهرمُ ويموت، وتشتركُ مع الإنسان كلُّ الأشياء في الطبيعة بما فيها من الجبال وصخورها الصمّ، لم تسلما ممَّا يفعله بهما الدهر من أعمال التعرية، فتُنخَرا وتتحوَّلا إلى أتربةٍ مع مرّ الأزمان، والدهور، وهذا ما أحزنَ امرأ القيس، ونغَّصَ عليه عيشَهُ، وهو يرى نفسه، فقوله: (سأنشب في شبا ظفرٍ وناب) كنايةٌ عن الموت، ورسم للموت صورةً مرعبةً ومُخيفة تعبّرُ عن قلقه في الحياة، بقوله:

وأعلـــمُ أنّنـــي عمَّـــا قليـــل سأنشَـــبُ فـــي شـــبا ظُفـــرٍ ونـــابِ[5]

ووظَّفَ كثيرٌ من الشعراء، الغرابَ الأبقعَ، أو الأسودَ، كنايةً عن تبديد الشمل بين الأهل، والأحبَّة، وكانوا يتشاءمونَ منه، بل يتطيَّرونَ به، ولا يُطيقونَ رؤيته، فرؤيتُهُ تؤجّجُ في نفوسهم مشاعر الخوف، والخشية، ممَّا تجلبُهُ هذه الرؤيةُ، من شرٍّ، وفي ذلك قال الشاعر عنترةُ بنُ شدَّاد:

ظَعَـــنَ الـــذين فـــراقَهُمْ أتوقـــعُ وجـــرى ببيـــنِهِمُ الغُـــرابُ الأَبْقـــعُ[6]

فعبارةُ (وجرى ببينهم الغرابُ الأبقع) كنايةٌ عن الفراق المؤكَّدِ الوقوع؛ لأنَّ رؤية الغراب تُحتِّمُ وقوع الفراق. ومثلُهُ قولُ النابغةِ الذبياني، الذي أشركَ مع الغراب، البوارحَ، وهُما ممَّا يتطيَّرُ العربُ منهما شرًّا، فـ(زعم البوارحُ أنَّ رحلتنا غدًا) أي أنَّ في غدٍ تفريقُ الأحبَّة، وكذلك (خبَّرنا الغرابُ الأسودُ) كنايةٌ عن أنَّ غدًا فيه تفريقُ الأحبَّةِ، وما يُصاحبُ ذلك من هواجسِ الخوف، والحزن، فقال:

زَعَـــمَ الغـــرابُ بـــأنَّ رِحْلَتَنـــا غَـــداً وبـــذاكَ خَبَّرَنَـــا الغُـــرابُ الأســـوَدُ[7]

لعمـــرُكَ مـــا تـــدري الضـــواربُ بالحصـــى ولا زاجـــراتُ الطيـــر مـــا اللهُ صـــانعُ[8]

الخاتمة

إنَّ خلاصة ما توصَّلَ إليه البحث، يمكنُ إيجازُهُ بالنقاط الآتية:

إنَّ ظهور هذه الأصول الرومانسيَّة في الشعر الجاهلي، يرجعُ إلى عوامل، منها ما يرجعُ إلى البيئة التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء، وهي بيئةٌ صحراويَّةٌ مفتوحةُ الأفق، وتمتدُّ مساحاتٍ شاسعةً لم يُدرِك هؤلاء الشعراء

(1) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨٢ .

(2) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١٣٥ .

(3) البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع: ٢٧٠ .

(4) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢– ٨٣ .

(5) ديوان امرئ القيس: ٩٨، أنشب: أعلق، وشبا: كل شيءٍ حدّه .

(6) أشعار الشعراء الستة الجاهليين: ٢/ ١٤٣ .

(7) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩ .

(8) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٢ .

أسرارها، ولا يعرفونَ ما تُخبِّئُهُ لهم هذه المفازات الشاسعة لِسُكَّانها، فقد لفَّها الغموض، وجعلهم يشعرونَ بالقلق والخوف، وهم يعيشونَ فيها من غير أن يعرفوا حقيقتها، فضلاً على أنَّها قليلةُ الموارد، شحيحةُ المياه، تضطربُ بصراعاتٍ وحروب، جعلت الناسَ الذين يعيشونَ فيها لا يأمنونَ على أنفسهم، ولا على أموالهم، ممَّا زادَ ذلك من كآبةِ نفوسهم وقتامتها .

ونجمَ عن ذلك أنَّ الشاعرَ الجاهليَّ عُنِيَ بمشاعرِهِ الذاتيَّة نحو الحياة والموت، وحاولَ أن يعرفَ أسرارهما؛ من أجلِ أن يبعثَ الطُمأنينةَ لنفسِهِ في هذه الحياة المحفوفةِ بالمخاطر التي لا تستقرُّ على حال، فكانت ثنائيَّةُ الحياة والموت، هي الموضوعَ الرئيس الذي دارَ حوله معظم شعرهم، غير أنَّ هذا الشعر كان يفتقرُ إلى العمق، إذ توقَّفَ الشاعرُ عند حدود ظواهر الأمور، فأخذَ يُعلِّلُ فيها ما تطرحُهُ نفسُهُ من أسئلةٍ وهواجسَ ومخاوف، بتعليلاتٍ بسيطة، فعزا الموتَ إلى الدهر، ورأى الزمنَ قاهرًا للإنسان.

وتفرَّعَ عن هذا الموضوع الرئيس (الحياة والموت) موضوعات فرعيَّةٌ، منها الخلود، فحاول بعض الشعراء على شاكلة الرومانسيين، أن يدركوا سرَّ الخلود، غيرَ أنَّهم رجعوا من تلك التأمُّلات بخيبة أمل، إذ رأوا في الخلود ضربًا من المستحيل، وما على الإنسان إلا أن يستسلمَ لإرادةِ الأقدار.

وكذلك دار شعرُهُم على ثنائيَّة الخير والشر وهي من الموضوعات الفرعيَّة التي لها علاقة مباشرة بموضوع الحياة والموت، فرأى الشاعرُ الجاهليُّ في اصطراع الخير والشر، ما يُنغِّصُ حياته ويكونُ سببًا في نكوصها وانحدارها نحو الموت، يُزاد على أنَّهم رأوا الشرَّ يُجسَّدُ لهم من خلال بعض الحيوانات التي يتطيَّرونَ منها مثل الغراب، والبوم، والطيور الأخرى، فهي تُنزِلُ الشرَّ بهم، من خلال تفريق الأهل والأحبَّة.

ومن الموضوعات الفرعيَّة الأخرى التي انبثقت من الموضوع الرئيس الحياة والموت، ثنائيَّة الشباب والشيب التي جسَّدت صراع الإنسان مع الزمن، إذ رأى الشاعرَ الجاهليَّ من الزمن سببًا رئيسًا في مُعاناته في هذه الحياة، فالدهرُ خؤونٌ يرميه بكُلِّ ما يُعكِّرُ صفوَ حياتِهِ، وإنَّ الأيَّامَ تسوقُ الإنسانَ نحو حتفِهِ، علاوة على ما يعنيه الشباب كونه أحلى سنين العمر، بزواله تذهبُ أجملُ ذكريات الإنسان، وتحلُّ محلَّها السنينُ التي تُشعِرُ الإنسانَ بإخفاقِهِ في الحياة نظمَ بعض الشعراء مشاعرهم نحو الحياة والموت، بقصائدَ طويلة ذاتِ منحىً قَصَصيّ، على شاكلة بعض الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث، وقد وُفِّقَ بعضُهُم بتوظيف القصص التاريخي، لتعزيز ما ذهبوا إليه، بأنَّ الحياة فانيةٌ، وإنَّ الموتَ واقعٌ ولا رادَّ له، ممَّا عزَّزَ مشاعرَ الحزن واليأس في هذه الحياة، وجاء بعضُهُم بصُوَرٍ شعريَّةٍ تشبهُ الصُوَرَ التي عبَّرَ من خلالها الشعراء الرومانسيُّونَ عن مشاعرِهِم، فقد خلعوا شيئًا من مشاعرهم على الطبيعة، ورأوا في ظواهر الطبيعة، ما يُعبِّرُ عمَّا تجيشُ به نفوسُهُم من مشاعرَ نحو الحياة والموت والخلود، يُضاف على ما يُرافقُ ذلك من مشاعر الخوف والقلق واليأس. وعبَّر بعضُ الشعراء الجاهليّين عن مشاعرهم، بالصور الشعريَّة التي تُعنى بنقل المشاعر، وتدعو للتأمُّلِ، وتتركُ في نفسِ المُتلقِّي انطباعًا مُعيَّنًا، وهم في ذلك يشبهون الرومانسيّين في العصر الحديث، فقد ابتعدوا عن التشبيهات الحِسِّية، وجاءوا بصورٍ شعريَّةٍ زاخرةٍ بالمشاعر، وتدعو إلى التأمُّلِ، وتوقظُ في نفس المُتلقِّي عواطفَ مُعيَّنة.

روافد البحث

- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداني، د.فائق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الأعلم الشنتمري، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت.
- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، د.ت.
- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م.
- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣م .
- البلاغة فنونها وأفنانها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط١، الأردن.
- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت.
- التفسير النفسي للأدب، د.عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨١م .
- جماعة الديوان، الدكتور يسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م.
- جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، رينانا ياكوني نموذجًا، د.عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط١، د.ت.
- الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٩هـ)، تحقيق: د.أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م.
- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، العبد لكاني الزوزني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعيبد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جياووك، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م.
- الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، د.ت.
- دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد.
- دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د.محسن اطيمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.
- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة.
- الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ٩٧٣م.
- ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
- ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزّة حسن، دمشق، ١٩٧٢م.
- ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. حنّا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ديوان شعر المثقب العبدي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
- ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بحلب.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصّار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م.
- ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبّار المعيبد، بغداد، ١٩٦٥م.
- ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقال، درية الخطيب، حلب.
- الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفيه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣.
- ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م.
- ديوان كعب بن زهير، رواية السُكَّري، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٨م.
- ديوان لآلئ الأفكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.
- ديوان المرقشين، تحقيق: كارين صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
- ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٠م.
- ديوان النمر بن تولب العكيلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدّم له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢.

- شرح شعر زهير بن أبي سُلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨م.
- شعر أبي زبيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م.
- شعر السموأل، تحقيق وشرح عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م.
- الشعر العربي في المهجر، د.إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.
- الصورة الشعريّة في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د.نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، ط٢، ١٩٨٢م.
- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت.
- عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا، د. عبد الفتاح عبد المحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م.
- كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هبود، شرك دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م.
- نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود.بهجت عبد الغفور الحديثي.
- النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.